السخريــة في شعر جريــر

الدكتــــور
أنــور حمــيدو علي فشــوان
الأستاذ المشارك في كلية التربية
جامعة الملك عبد العزيز، بجدة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

مقدمـة

لقد كانت السخرية ـ وما زالت ـ تشكل عنصراً لافتاً للنقاد والباحثين في الأساليب الأدبية لبعض الكتاب والشعراء ، باعتبارها أحد الملامح الفنية المهمة التى تسهم بحظ كبير في إثراء العمل الأدبي، وتعميق آثاره الفنية، وفي الغالب يأتى هذا ، الأسلوب الساخر ليكون سبباً مباشراً في خفة الظل لدي الشخصيات الأدبية ، ومن ثمّ قربهم من نفوس القراء ، وذيوع كتاباتهم ، والإقبال عليها ، وفي تناولنا النقدي لمثل هذه الأعمال يطلّ بقوة ذلك الوصف بالمصطلح الفنّى الساخر ، حين نصف أديباً بأنه أديب ساخر ، أو العبارة بأنها عبارة ساخرة ، وهو استعمال ـ فى الحقيقية ـ يضع الباحث فى حيرة من أمره ، وبخاصة حين يروم تحديداً دلالياً قاطعاً لهذا المصطلح ؛ هل السخرية نوع من الفكاهة ، أو الدعابة ، أو التندّر ٠٠ ؟ ، هل نقصد بها دلالة الاستهزاء ، أو التهكم ، أو الاستنقاص من الغيرة٠٠ ؟ ! .

الحقيقة أن السخرية لفظة جامعة تستوعب فى جعبتها كل هذه الدلالات ، بل تحدّد لكل دلالة منها درجة معينة من القوة والضعف ، والقبول والمنع ، وما هو داخل فى إطار العرف وما هو خارج عنه ، وسبيل معرفة ذلك إنما يكمن فى تلك السياقات المستعملة فيها هذه السخرية ، والمحدّدة لطبيعتها وتصنيفاتها ، ومن ثمّ يمكننا الحكم على درجة نجاحها أو فشلها فى الهدف الذي ترمى إليه ، والغرض الذى أرسلت من أجله .

وطبيعة الأشخاص ـ بشكل عام ـ إنما تحمل فى تكويناتها قدراً من الفكاهة والسخرية ، تتفاوت بتفاوت، فروقهم الفردية، كما تتفاوت بواعثها وغاياتها، مختلفة

باختلاف الأشخاص والجماعات والبيئات ،فحين تتسع الانحرافات الفردية والاجتماعية ، وتتفشي مظاهر الفساد والقهر،تبرز طائفة من الأدباء والمفكرين لتستخدم هذا اللون من الكتابة وسيلة للإصلاح والتقويم ، فالانحراف والكبت يخلقان سخرية مريرة ، تقوم بفعل العقاب كنوع من المقاومة والرفض ، كما تقوم بتخفيف أعباء الانفعال والتوتــر.

ويُعــدُّ الشاعر جرير بن عطية الخطفي (٣٣ ـ ١١٤هـ) فارس الحلبة بلا منازع في مضمار هذا اللون من الأسلوب الساخر ، وجعله ظاهرة فنية يتضمّنها هذا الاستخدام الشعري ، المتطور عن قصيدة الهجاء، واتخاذه معلماً أدبياً يشار به إلى المستجدات الأدبية والفنية فى العصر الأموي عامة ، وفي شعر جرير خاصة ، حيث تعزى إليه ريادته الفنية فى قيادة فريق من الشعراء الكبار فى العصر الأموي ليتم على أيديهم أكبر وأشهر تطور فني للأغراض الشعرية فى هذا العصر ، ممثلاً فى شعر النقائض ، الذى تحول على أيديهم إلى شعر نوعي ، تتركب صورته الفنية من قالب هجائى تدور رحاه بين متخاصمين ، متضمناً من الأفكار والمضامين الساخرة ما يجعله غرضاً فنياً مستقلاً بذاته ، إذ لم يكن الصراع الهجائي الذى دار بين جرير وخصومه من الشعراء مسألة هجاء حادّ ، بقدر ما كان مسالة مناظرة فنية بالشعر ، فى عصبيات القبائل والعشائر ، على نحو يشبه إلى حدَّ كبير طبيعة التناظر السياسي بين الصحافة الحزبية فى عصرنا الحديث ، حيث تصل

المناقشات والمجادلات العنيفة إلى ذروتها ، وفى نفس الوقت يحتفظ الكتاب السياسيون وأعلام الصحافة بصداقتهم وودّهـم المعروف.

وربما كان الهجاء في بداية أمره ـ قبل أن يصل في بعض صوره على درجة عالية من الإقذاع والقبح ـ أسلوباً من أساليب السخرية ، يدفع غليه حب الحياة ، والتعلق بالمثل العليا والرغبة فى التقويم ، ولكنه حين دخلت عليه عوامل أخرى ، ترجع إلى مبالغة الإنسان أحياناً فى التهجم، أو التعدي ، أو ردّ الاعتداء ، أو الدفاع عن النفس، أو الاستجابة على دواعي العصبية والتشجيع عليها ، جنح إلى المبالغة ، واشتط في بعض المواقف ، فانتهى الأمر بهذا النوع إلى التطرف الشديد الذى أثْرى به الأدب العربي ، وغلى أن أصبح ملمحاً فنياً معروفاً ، يشبع حاجات اجتماعية وترفيهية في المجتمع الأموى الجديد.

ومهما يكن موقفنا من هذا الهجاء ، ومهما يكن موقف الأدب العربي منه ، فإنه بحكم الصلة التى تربطه بالسخرية ضعفاً وقوة ، وبحكم أنه يستخدم أدوات السخرية، وينهج منهجها ، ويستعمل أسلوبها ، فإن الهجاء قد ساعد على إثراء السخرية ، وعلى تطويع العربية لها ، حتى يندر أن نجد شاعراً أو كاتباً لا يستخدمها للوصول إلى نفس القارئ أو السامع ، ويندر أن نجد اجتماعات للأدباء ، أو مجالس للأدب تخلو من نكات موحية ، أو عبارات لاذعة ، وقد خلّف هذا فى الأدب العربي مادة جاهزة إن صحّ أن نأخذها على هذا المعنى ، ويمكن أن نعدّ اللغة العربية نفسها ـ وقد مرت بتطورات كثيرة فى كل فنون القول ـ مطواعة أكثر من غيرها لهذا الفن الذى يتصل بالإنسان وبالمجتمع.

ويمكن القول بأن جريراً والشعراء الذين شاركوه فى ميدان الأسلوب الساخر، يرجع إليهم الفضل فى هذا السبق الفنى والإبداعي فى هذا المجال، على

اعتبار أنه حقق أهدافاً عدة،على صعيدها الأدبي والاجتماعي والمعرفي؛أما على الصعيد الأدبى فيتمثل فى إحراز الأسلوب الساخر الذى طوّع اللغة بمفردات ومصطلحات جديـــــدة..

في محاولة لاستيعاب مضامين وأفكار جديدة ، حازت قصب السبق فى خلق هذا النوع الشعري الذى تحقق لأول مرة فى تاريخ الشعر العربي ، الذى تولد في إطار من تطوير فن الهجاء المحدّد شكله ومضمونه فى تراثنا الأدبي.

وعلى الصعيد الاجتماعي ، فقد حقق المجتمع الأموى الجديد حاجاته الاجتماعية التى استجدت ، تبعاً لظروف العصر السياسية والاجتماعية الجديدة ، فى سـدّ الفراغ وملء الأوقات ، وتسلية الجماعة العربية التى تطورت حياتها على متطلبات طبيعية من حياة اللهو والترفيه، والحاجات الفنية.

أما على الصعيد الثقافي والمعرفي ، فلقد تحققت هذه الصورة الفنية من الأسلوب الساخر ، مستضيئة بقدرة العقل العربي الجديدة ، والتى تجلت في عملية الجدال والتوليد فى الأفكار والمعاني ، وتفتيق الدلالة ، والاستعانة بالخلفية الثقافية والمعرفية للأنساب والقبائل ، والتسجيل التاريخي للأحداث والوقائع وأيام العرب ، الأمر الذى جعل من هذه القصائد المعروفة بالنقائض ، سجلاً حافلاً بالتاريخ والفن والسياسة والحياة العربية، فى فترة تاريخية وأدبية من أهم الفترات فى تاريخ الأدب العربي.

ومن ناحية أخري، فإن ابتداع مثل هذا الأسلوب الفنى الساخر، والتمكن من ناحيته ليكون أداة طيّعة فى الكتابة أو الشعر،أمر قد لا يتوفر لكل الأدباء أو الشعراء على نحو يجعل منه شيئاً سهل المنال ، وإنما الأمر يتطلب نوعاً من التركيبة النفسية الخاصة ، ومزاج من الروح والشخصية بملامحها ومواصفاتها

الدقيقة ، بل وتوفّر نوع من الظروف والملابسات الخاصة، على المستوى البيئي والاجتماعي تدفع إلى خلق هذا النوع من الشخصية الساخرة.

وهو الأمر الذى أراه قد توفّـر فى شخصية جرير ، حيث توفرت له أسباب ودوافعه من طابعه الشخصي ، وتنشئته الاجتماعية، ووضعه الاجتماعي بين العشائر ، ما يجعله بيئة مواتية لتحقيق هذا النوع من الأساليب الفنية ، وجعلها ظاهرة أدبية فى شعره ، وقد تخصّصتْ سطور هذه الدراسة بمباحثها المتعددة فى سَبْر أغوار هذه القضية ، حيث عرضتْ أسباب الظاهرة ودوافعها، ممثلة فى دراسة الجوانب النفسية والاجتماعية للشاعر ، وانعكاسها الفني في خلق هذه الظاهرة فى شعره ، والتحليل النقدي والأدبي لطبيعة الوعاء الأدبي الذى احتضنها ، ممثلاً فى شعر النقائض ، ثم العرض المستفيض لهذه الظاهرة الفنية ، والتى تعددت وجوهها الساخرة عند الشاعر ، بين السخرية بالنقض ، وسخرية المعايرة ، والصورة الكاريكاتيرية ، والقفشات الضاحكة وغيرها.

وقد جاءت شخصية جرير الفنية فى كل هذه العروض من أشكال السخرية ، تطرح وجوهاً من الإبداع الفني ، ممثلة فى قدرته على خلق أسلوب شعري ، اقل مايوصف به أنه من السهل الممتنع ، حيث جمع فيه بين العمق والوضوح ، وجدّة العرض ، وسلاسة التناول ، وللقارئ أن يرجع إلى هذه الملامح الفنية وغيرها في سطور هذه الدراسة ، التى خرجت فى مقدمة وأربعة مباحث ، تتضمن من الأفكار والموضوعات والمعالجات على هذا النحو الماثل الآن بين يدى القارئ.

والله من وراء القصد ، وهو ولى التوفيق.

المبحث الأول

جرير الشاعر.. مقاربات وإضاءات

لم يكن الأمر من قبيل الجدّة فى شئ ، حين نشير إلى طبيعة المكانة الشعرية المتفردة التى حازها جرير ، وقامته الفنية التى اعتلى ذراها عن جدارة واستحقاق ، من بين كل شعراء عصره ، وتلك حقيقة أدبية ، يشهد بها كل ناقد للأدب ، وباحث فيه فى القديم والحديث.

على أن بلغة جرير من شهرة وذيوع فى تراث الأدب العربي ، لم يكن لمجرّد أنه شاعر من شعراء العصر الأموي فحسب ، وإنما الأمر يتجاوز ذلك إلى حدَّ أنه واحد من أهم الأعلام المبرّزين فى هذا العصر ، ينفرد بشخصيته الفنية على مستوى الإبداع الشعري ، والذى وسمه بمجموعة من الملامح الفنية فى الأداء والفكر والأسلوب وجدّة الموضوعات ، حتى صار فى أعين النقاد والقراء رائد الثلاثة الفحول الذين درجت شهرتهم تتأكد فى مداد كل قلم يدوَّن للأدب فى هذا العصر، أويتناول بالدرس إحدى قضاياه ، أو يعرض لتاريخه وفنه ضمن ما يعرض لتاريخ الأدب وفنونه عبر العصور.

من ثم فإن طبيعة المقاربة الأدبية التى نتناولها فى هذا المبحث ، إنما نعنى بها أن تكون مجرد إضاءات كاشفة ، تفصح عن أهم الجوانب والأبعاد التى أسهمت فى تشكيل الشخصية النفسية والأدبية لهذا الشاعر ، وكذلك الظروف والملابسات التى أسّست لخلق شخصية فنية وإبداعية،على هذا النحو الذى انتهى إليه نتاجه الأدبــي

والفني ، والبحث كذلك ـ فى كل ما من شأنه أن يلقى بظلال من التسيير حول كل مشكلة فنية تتعلق بموضوع البحث ، والميدان الشعرى الذى تفرّد فيه.

وليس من سبيل يبلغنا هذا الهدف ، إلا أن نوازى بهذا التضوئ المقارن بين الفحول الثلاثة، على نحو يصبّ كل نتائجه فى صالح الجانب المعرفى بجرير ، ذلك لأن بقية الأطراف المهمة فى حلبة الصراع مع جرير ، إنما تمثل بقيـة الحلقات المهمة فى منظومة العمل الشعري لجرير ، فضلاً عن أنها تمثل كذلك أهم الميادين التى توجه إليها الشاعر ، لتكون موضوعاً لشعره ، وهدفاً أصيلاً لفنه بشكل عام.

جرير الشاعر ، وكذلك صاحبه الفرزدق ـ أحد الأطراف الأساسية فى حلبة الفحولة الشعرية ـ إنما ينبتان من شجرة كبيرة ، هى شجرة تميم[1]من ثم فإن أغصانها تلتقى فى أبناء عمومة واحدة بيد أن هذه القرابة البعيدة بين الشاعرين ، لم تكن مؤثرة فى تصنيف مواقفهما السياسية،لأن تميماً ـ التى ينتمى إليها الشاعران ـ لم تمثل فى تلك المدة كياناً عضوياً واحداً فى الرأى والميل والمصلحة، بل كانت بالأحرى مجموعات من القبائل والعشائر ، تختلف طرائقها واتجاهاتها باختلاف مقوماتها التاريخية[2].

والباحث المتتبّع لتاريخ تميم فى الجاهلية ، يلحظ بوضوح كثرة تفرّعها إلى مجموعة من القبائل التى استقلت بذاتها ، حتى صارت هى الأخرى قبائل متعددة، تختلف فيما بينها قوة وضعفاً ، وكثرة وقلة ، والذى يهمنا فى هذا الشأن ، ثلاثة الفروع التى تفرعت عنها تميم ، وهى بنو الحارث ، وبنو زيد مناة ، وبنو

---

(١) شكلت هذه الشجرة الجزء الأكبر من شرقى الجزيرة العربية ، إذ كانت تمتد بفروعهـا مـن البحرين واليمامة وفيافى الدهناء جنوباً ، إلى شواطئ الفرات شمالاً، وتتوغـل هـذا الخـط حتى نجد.

[دائرة المعارف الإسلامية فى طبعتها العربية ـ المجلد الخامس ـ ص ٤٧٣]

(٢) انظر: الكامل فى التاريخ ، ابن الأثير، دار الكتاب العربي، ١٣٠١هـ، ١/ ٢٠٤، ٢٠٩

عمرو ، وقد انقسمت بنو زيد مناة على مالك ويربوع ، ومن سلسلة بنى مالك جاءت فروع دارم وفقيم ونهشل ، ومجاشع وعبد الله ـ قوم الفرزدق ـ ومن سلسلة يربوع جاءت سليط ، والعنبر ، وغدانة ورياح ، وكليب ، رهط جرير[١].

أما جرير : فهو جرير بن عطية الخطفي (٣٣ ـ ١١٤ هـ)[٢] المكنىّ بأبى حزرة (ابنه الأكبر) ولد فى اليمامة لأسرة فقيرة معدمة[٣] كان معظم أهله يجيدون قرض الشعر ، منهم أبوه الذى عرف بقصر القامة ، وضعف البنية[٤]وكذلك جدّه حذيفة بن بدر الملقب بالخطفى ، وكان يرمى بالشح ، حتى هجاه جرير ذات يوم فى هـذا الأمـر[٥].

أما أمّـه فهى أم قيس بنت معبد الكلبية ، لقبتْ بـ (الحِقّـة) من قبل رجل رفض أبوها تزويجها منه ، بحجة أنها صغيرة ، فتعجب الرجل من هذا السبب ،

---

(١)انظر: العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، طبعة دار الكتاب العربي ، ٣/ ٣٣١ وما بعدها.

(٢) انظـر فى ترجمتـه: طبقـات فحـول الشـعراء ، لابـن سـلام، دار المـدنى ـ جـدة ، ١٩٧٤، ٢/ ٣٩٧، والشـعر والشـعراء ، لابـن قتيبـة ـ دار إحيـاء العلـوم، ١٩٩٤ ، ١/ ٣٠٩.

(٣) انظر: الأغانى ، لأبى الفرج الأصفهانى ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣ ، ٨/ ٥٣.

(٤) الشعر والشعراء ، ١/ ٣٠٩.

(٥)جاء فيه قوله : وإنى لمغـرور أعَلّلُ بالمنَى ٠٠ ليالىّ أرجو أنَّ مالك مالـيا

فأنتَ أبى مالم تكن لى حاجه ٠٠ فإنْ عَرَضَتْ أيقنتُ أن لا ابالـيا

[طبقات فحول الشعراء، ص ١٤٢، والأبيات فى ديوان الشاعر ـ طبعة دار صادر، ص٥٠١].

وهجاها بقوله إنها حقه ، أى إنها مثل الناقة التى بلغتْ من السنّ ما يجعلها تصلح للضراب ، وقد غيرَّ أولادها ، وأحفادها بهذا اللقـــب[١].

ينتمي جرير إلى قبيلة كليب أحد أحياء يربوع من بنى تميم ، وهى قبيلة متواضعة المكانة ، ليست على شئ من الجاه والشرف ، أهلها رقاق الحال ، يرعون الغنم والحمير لا خيل لهم ولا جمال ، ينزلون بالبادية فى إحدى قرى اليمامة ـ مسقط رأس الشاعر ـ بالجنوب الشرقى من نجد حتى أسفل الفرات[٢] ، ولم يرد لهم ذكر فى أيام الجاهلية ، اللهم إلا فى يوم (جَدَود) الذى أبَتْ فيه أن تساعد بنى ربيعة عندما أغارتْ عليهم قبائل من بكر ، وبذلك استحقوا أن يعيرهم بنو تميم ، وقد جلبوا الخزى والعار ليربوع[٣] ، كذلك لم يظهر من كليب فوارس يستطيع أن يلهج الناس والشعراء بذكرهم ، كبقية فروع يربوع التى ظهر منها أمثال (مالك بن نويرة) أحد أرداف الملوك ، (قعنب) وغيرها[٤] ، ويقول المبرد: إنه لما نزل الخطيئة فى بنى كلب بن يربوع ، قالت له ابنته: تركت الثروة والعدد ، ونزلت فى بنى كليب بعـــر الكبش[٥].

---

(١) انظر: النقائض ، أبو عبيدة معمر بن المثنى ـ دار صادر ، ١/ ٢٦١.

(٢) انظر: معجم البلدان ، ياقوت الحموى ، طبعة دار الفكر ، ١٩٧٣، ٢/ ٢٦١.

(٣) انظر: الكامل فى اللغة والأدب ، المبرّد ، المكتبة التجارية ، ١٩٢٩ ، ٢/ ٣٠١.

(٤) الكامل ، للمبرد ، ٢/ ٣٠٢.

(٥) نفســه ، ١/ ٣٣٦.

لذا فقد نشأ جرير نشأة بدوية فقيرة ، يرعى على أبيه غنيمات من الضأن والمعز، يسوق الحمر[١] ويرى نطاح الكباش ، ونزاء التيوس ، وتتشبع نفسه من فقر أبيه ، وهوان أهله ، وشظف الحياة فى البيئة البدويـة.

وجرير ـ بهذا الوضع الاجتماعى الضعيف ـ إنما يمثل أحد طرفى نقيض مع صاحبه الفرزدق، الذي ينحدر من نفس الشجرة التميمية ، غلا أنه وُلد فى فرع من أهم فروع تميم مجداً ورفعة ، وهو فرع دارم ، حيث ولد لأسرة أرستقراطية من بنى مجاشع ، إذ كان جدّه صعصعة أحد سادة العرب وأشرافها فى الجاهلية ، وقد ذاع صيته لكثير من المكرمات التى كان يقوم بها لا سيما افتداؤه البنات من آبائهن بالمال حتى لا يقومون بوأدهـــن[٢].

وكان أبوه كذلك على مثال جده ، فهو أحد سادة بنى تميم ، أصحاب الشرف فى الإسلام ، اشتهر بين الناس بجوده المفرط[٣].

وقـد تنوعت من دارم عدة فروع أخرى ، تلتقى جميعها فى دوحة العلياء والشرف، أهمها : عبد الله ، ونهشل ، ومجاشع ، وفقيم،وهؤلاء جميعاً تحفل كتب التاريخ والأدب بمآثرهم وبطولاتهم فى الجاهلية[٤]فضلاً عن رجالاتهم الذين تفرعوا منهم ، مثل زرارة بن عدس من ولد عبد الله ، ومن ولد زرارة حاجب

---

(١) ومن ثم جاء لقب الفرزدق له بـ (ابن المراغة) والمراغة : الأتان التى لا تمتنع عن الذكور.

(٢) الأغانى ، لأبى الفرج الأصفهانى ، دار الكتب العلمية ، ١٩ / ٢ وما بعدها.

(٣) العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، تح : إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب العربى ، ٢/ ٢١٤.

(٤) طالع كتاب: (النقائض) ١/ ١١٨ ، و(الأغانى)٦/ ٣ــ٦، و(أيـام العـرب فى الجاهليـة) جاء المولى وآخرون ـ طبعة الحلبى ـ ص ٣٤٧ و (الكامل) للمبرد ، ١/ ٢٦٥.

سيد بنى تميم فى الجاهلية[١]، ومما يدل على مكانة زرارة ، أن علماءً كثيرين اجتمعوا عند عبد الملك فذكروا بيوتات العرب ، فاتفقوا على خمسة بيوت ، أحدها زرارة بن عدس فى تميم ، وقال معاوية للكلبى : أخبرنى عن أشرف بيت فى العرب، قال : والله إنى لأعرفه ، وإنى لأبغضه ٠ قال : ومن ؟قال : بيت زرارة بن عدس[٢].

وذكرت بنو دارم بحضرة عبد الملك فمدح منهم لقيطاً والقعقاع بن معبد ، ومحمد بن عمير بن عطارد ، وقال : والله لا تنسى العرب هؤلاء الثلاثة أبداً[٣].

وكما يُزين الفرزدق فى نسب أبيه ، فهو كذلك فى نسب أمه التى كانت من أشرف الأسر فى بنى ضبّـة ، وهى لبى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس[٤] وخال الفرزدق العلاء بن قرظة الضبى وكان شاعراً، ماجعل الفرزدق يقول : أتانى الشعر من قبل خالى[٥] وما جعله كذلك يقسّم كثيراً من فخره وتعاليه بين آبائه وأخواله، إذ من هذين الأصلين يتلفّع الشاعر بأردية الشرف والرفعة، ويصعد على أكتافهما إلى أجواز السماء.

من ثم لا يأخذنا العجب كثيراً حين نجد الفرزدق، وقد تشبّعتْ نفسه بشعور التعالي والفخر،وأن يدل على خصمه ـ جرير ـ فى حلبة الهجاء بكل هذه الأصول التى تحيط به،وهذا هو سرّ تلك الملاحظة لدى القارئ حين يرجع إلى

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية ـ ص ٣٤٨.

(٢) نفسه ، نفس الصفحة ، والعقد الفريد ، لابن عبد ربه ، ٢/ ٢١٤.

(٣) الكامل للمبرد ، ١/ ٢٦٦.

(٤) الشعر والشعراء ، لابن قتيبه ، ١/ ٣١٦.

(٥) نفسه ، ص ٣٢٠.

ديوان الفرزدق،فيجد هذه الكثرة الهائلة من الشعر داخلة فى باب الفخر،إلى الحدّ الذي يقول

فيه بعض الباحثين : " وديوان الفرزدق فى حقيقته ، يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه، وتمجيداً غالياً لهم ، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب قيلت فى مديحهم ، والفخر بهم ، فخراً لا تجفّ مادته فى نفسه ، إذ كان يستمد فى لعين لاينضب ، وكأنه يغرف من بحر "[1]

أما الأخطل ـ الخصم الثاني فى حلبة الهجاء ضد جرير ـ فهو كالفرزدق فى الذؤابة من قومه ، واسمه غياث بن غوث ، سيد من قروم بنى تغلب التى كانت تنزل فى الجزيرة ، وتمتد عشائرها وبطونها جنوباً حتى الحيرة ، وغرباً حتى حدود الشام وشمالاً وشرقاً حتى أذربيجان[2].

وهى قبيلة نصرانية منذ عهدها بالجاهلية ، وظلت على ديانتها ـ إلا قليلا منها دخل الإسلام ـ حتى العصر الأموى ،وهى تدفع الصدقة ـ بدلاً من الجزية ـ من أيام عمر بن الخطاب[3].

وفى العصر الأموى تنضمّ قبيلة بنى تغلب شاهرة سيوفها إلى معاوية وجيشه ضد علىّ وأصحابه ، وظلت بعد ذلك موالية لبنى أمية حتى تعززتْ مكانتها ، وحتى صار الأخطل واحداً من أهم شعراء بنى أمية ، يعيش فى

---

(١) انظر: التطور والتجديد فى الشعر الأموى ـ د٠ شوقى ضيف ـ طبعة دار المعارف ط٦ ص١٤٥.

(٢) الأغانـــي : ١٠ / ٩٣.

(٣) تاريخ الطبرى ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار المعارف ، ١٩٦٢ ، ١/ ٤٨٢.

بلاطهم، ويحظى بصلاتهم ، وقد اتخذه يزيد بن معاوية نديماً له ، فكان يرافقه ويلازمه حتى فى الحج إلى بيت الله الحـرام(١).

وليس القصد من وراء تعقبنا هذه الإشارات التاريخية ، أن يكون الهدف منها هو التوثيق التاريخي لعلاقات القبائل العربية ، وإنما ثمّـة اعتبارات مهمان :

أولهما، أنها تشفّ عن تلك الحاسّة التاريخية التى كان يتزوّد بها شاعر النقائض، والتى كانت تصله بتراثه ، وتصل حاضر قبيلته بماضيها ، وتجعل مواقفها فى العصر الأموي حلقة من حلقات ذلك الوجود القبلى التى يمتد بجذوره إلى العصر الجاهلـي.

ثانيهما ، هو أن تلك الدلالة التاريخية التى اقتضت من شعراء النقائض ذلك الجهد الثقافي الجامع ، وذلك الكيان الذهني المركب ، تقتضي من المتلقي بدوره جهداً مماثلاً ، حتى يدرك كل إيماءاتها ، وحتى يقف على جوهر وقائعها وأحداثها ، وحتى يستوعب مجمل العمل الشعري بكل أبعاده ومراميه ، ومن ثم نزعم أن المستوي التاريخي فى إبداع النقائض ، لا بد أن يواكبه مستوي مماثل فى تلقيها وتذوقها.

وعلى ضوء ما سق ، ومن خلال هذا العرض الكاشف لأحد الزوايا المهمة والمشتركة بين الشعراء الفحول ، يمكن لنا أن نفسّر طبيعة المسار الفني لشعر جرير، فيما يتعلق بفنه الساخر الذى تولّـد فى حلبة الهجاء الكبرى التى دارت بينه وبين الخصوم ، كما يمكن لنا الكشف عن أسرار نفسية واجتماعية ، شكّلت منه هذا المارد العنيف والزلزال الكاسح ، لكل من تعرض له أو نال منه، أو نازله فى حلبة من حلبات الصراع الفنى.

---

(١) الأغانـــي: ٨/ ٣٠١.

المبحث الثاني

نقائــض ..٠٠ وسخريــات

إنه فى حال نظر الباحث المدقق فى كمَّ وطبيعة الأشعار الساخرة التى تضمنتها أعمال الشاعر جريــر مع خصومه من الشعراء الذين شاركوه فى هذا الميدان ، لا شك أنه يتثبت من نتيجة ترقى إلى مرتبة اليقين بنشوء ظاهرة أدبية جديدة ، تشكّل ملمحاً فنياً جديداً لم يكن له وجود بمثل هذه الكثافـة من قبل ، إلى حدَّ أن صار هذا الملمح يُدْرج فنياً فى جانبه الاحترافي لدى شعراء بنى أمية ، وبخاصة عند الشعراء، الفحول الثلاثـة ؛ جرير والفرزدق والأخطـل.

وبالنظر الفاحص فى هذه الظاهرة ، وطبيعة الشكل الفنى الذى يحتوى مضامينها، يُدرك على الفور هذا التلازم الوثيق بين هذه الظاهرة ، وهذا اللون الجديد من القصائد التى عُرفت فنياً تحت اسم (النقائض)، وهى وسط فنى جديد تخلّق على إثره هذا العنصر الإبداعى من فن السخرية، وارتبطت قصائده به ارتباطاً تلازمياً فى الغالب ، على الحدَّ الذى نعتبر فيه السخرية كظاهرة فنية إنما تمثل شارة أدبية تذكّر بشعر النقائض ، وقد ذاع صيتها ، وراجت سوقها، حتى خلّف لنا تراثنا الأدبي ممثلاً فى أعمال جرير وصاحبيه ـ ديوانين كبيرين ، يعرف أحدهما بـ (نقائض جرير والفرزدق) والآخر بـ (نقائض جرير والأخطل).

والأصل الفنى الذى تتأسس عليه هذه النقائض؛ أنها قصائد مبنية على غرض الهجاء القديم ، لكنه فى صورة متطورة ، بعد أن لحقته وامتزجت به كثير من المستجدات الفنية والموضوعية التى ظهرت فى العصر الأموى ، بحيث صار على العمل الفني والتركيبي المعقّد أقرب منه إلى العمل الهجائى البسيط.

وبإمكاننا الآن أن نرصد ثلاثـة عوامل أساسية ، شكّلت معظم هذه المستجدات التى ترسّخت فى العصر الأموى ، وفى نفس الوقت أسستْ لتشكيل الملامح الفنية والموضوعية لشعر النقائض ، تلك التى مثّلت ظرفاً مواتياً ، وسياقاً طبيعياً لنشأة العنصر الساخر فى العمل الشعري ، بل وأذكته بطبيعتها الفنية الجديدة ، ليكون العنصر المهم والفاعل فى هذا اللون الشعري الجديد.

أولى هذه العوامل ، بروز العصبيات القبلية من جديد ، وعودة ذلك الصراع الحاد الذى عمل الإسلام على إماتته ، وتحويل تياره ضد أعداء الجماعة الإسلامية ، حتى إذا قبض بنو أمية على زمام الخلافة ، ساعدوا بسياستهم وبأسلوب حكمهم على إحياء هذه العصبية ، وإذكاء نارها ، فتعصبوا لذويهم من بيت أمية بن عبد شمس ضد أبناء عمومتهم من بنى هاشم بن عبد مناف ، ثم تعصبوا لقريش من بين سائر العرب ، ثم اعتدوا بالعنصر العربى خاصة فى مقابلة الأجناس الأخرى الداخلة فى الإسلام ، وأفضت هذه العصبيات الحادة إلى عصبيات مضادة ، تمثلتْ فى ثورات الموالى على سلطة الأمويين كلما سنحت لهم الفرصة ، كما تمثلت فى استقطاب القبائل على نحو لم يدع للأمن والسكينة مجالا، حتى جرى الأمر ـ كما يقول المسعودى ـ : " افتخرت نزار على اليمن ، وافتخرت اليمن على نزار ، وأدلى كل فريق بماله من المناقب ، وتحزبت الناس ، وثارت العصبية فى البدو والحضر "[1].

وكان على أثر هذه العصبيات التى عادت من جديد أن عكستْ صداها الفنى فى النتاج القولى لدى الشعراء ، ممثلاً فى هذه النقائض التى اتخذت مساراً فنياً

---

(١) مروج الذهب ، للمسعودى ـ طبعة المطبعة البهية ٢/ ١٩٧.

جديداً، من الهجاء الساخر ، والتهكم اللاذع فى إطار من الصورة الثنائية بين المتهاجين.

كلاهما يحاول تحقيق عامل الغلبة والانتصار واستمالة الأنصار المشجعة من الجمهور وأبناء القبيلة ، تحت أى غطاء فني أو موضوعي ، قد لا نعدم فيه ـ غالب الأحيان ـ اللجوء إلى سلاح التشهير وبالعورات ، والخوض فى الأعراض ، لكنه لا يعدو أن يكون ذلك فى إطار من المبارزات الكلامية ، أو التياري الفنى ، ذلك لأنهم لم يكونوا يأخذون الأمر مأخذ الجد ، وإلا لكان قليله أجدر بإراقة الدماء.

أما ثانى هذه العوامل ، فتتمثل فى طبيعة الحاجات الاجتماعية التى طَفَتْ على السّطح كنتيجة طبيعة اقتضتها ظروف العصر ، وحتمتها سنة التطور، وانتقال المجتمعات من حياة البداوة إلى حياة الحضر ، فكان طبيعياً أن تنشأ مع نشوء المدن كالبصرة والكوفة فى العراق ، ومكة والمدينة فى الحجاز ـ حاجات اجتماعية تنمو وتتزايد فى سياقها الطبيعى ، كالحاجة إلى اللهو والترفيه ، وتزجية أوقات الفراغ ، أما مدن الحجاز فقد وجدت بغيتها فى مجالس الغناء وأشعار الغزل والكلف بالاستماع إلى المغنيات والمغنين(١) على غير ما نجد القبائل العربية فى مدن العراق، فلم يرق لهم هذا الاتجاه لشدة صلاتهم بحياتهم البدوية ، لكنهم وجدوا بغيتهم فى هذه المناظرات الهجائية التى حمى وطيـــها بين الشعراء ، فانبرى الهجاؤن يملأون أوقات الفراغ بأهاجيهم الذائعة ، وسرعان ما تحولت إلى نقائض مثيرة ، تحفل بالطرائف والسخريات ، والتهكم والنكات ، فشاعر من قبيلة معينة

---

(١) انظر: الشعر الغنـائى فى المدينـة ص ٦١ ، والشـعر الغنـائى فى مكـة ، ص ٥٧ ، للـدكتور شوقى ضيف ، وهما من طبعة دار الفكر العربى بمصر.

، ينظم قصيدة يهجو فيها شاعراً آخر ، ويسخر منه ومن قبيلته ، ويفخر بنفسه ورهطه، وبمالهم من أمجاد فى الجاهلية ، ومكانة فى الإسلام ، فيجيبه الشاعر الآخر بقصيدة.

على وزنها وقافيتها ـ فى الأغلب ـ ناقضاً كثيراً مما جاء به الشاعر الأول من معان وصور، مضيفاً إليها من جانبه مزيداً من الفخر والهجاء، والناس حوله يهتفون ويصفقون[1].

أما ثالثها ، فتتمثل فى العامل العقلي والمعرفي الذى أسهم بطبيعته فى تعميق البعد الفني الذى خرجت به هذه القصائد ، كأحد المعالم الفنية التى غايرت بها القصيدة الهجائية القديمة مغايرة تامة ، ومردّ هذا العامل يرجع إلى نمو العقل العربي، ومرانه الواسع على الحوار والجدل ، والمناظرة فى الملل والنحل السياسية، وفى الفقه وشئون التشريع[2] الأمر الذى ظهر جلياً فى طبيعة الأداء الشعري لهذه القصائد ، فى سَوْق الأدلة، والاستشهاد بالوقائع ، والاستخلاص من الأحداث ، ودرس الموضوع الشعري دراسة دقيقة ، بحيث يمكنه من النظر فى حجة الخصم ، والعمل على دحضها ، أو قلبها إلى صالحه ، وفى بعض الأحيان ردّها عليه وتحقيق النيل منه.

كما تتبدّى كذلك الصورة الإيجابية للحالة الثقافية والمعرفية التى يتفتق عنها ذهن الشاعر الأموي، فى هذه التركيبة الفنية المعقدة لقصيدة النقائض ، ممثلة فى مناقضة الخصم بقصيدة تترسّم نفس الوزن والقافية ، ومناظرته قولاً بقول،

---

(١) الأغانـــي : ١٠/ ١٥٢.

(٢) انظر: العصر الإسلامى د/ شوقى ضيف ـ طبعة دار المعارف ـ ط٦ ، ص ٢٤٢.

وهجاءً بهجاء، وفخراً بفخر ، فضلاً عن فكرة توليد المعاني وتدويرها على أكثر من وجه ـ كما هو الحال عند جرير ـ واتخاذ السخرية كذلك واحدة من أهم الأسلحة المشرعة فى وجه الخصم لتبكيته والقضاء عليه.

المبحث الثالث

سخرية جرير... الأسباب والدوافع

لعله من المناسب حقاً ـ ونحن نفضّل القول ونجلّى عن القضايا الفنية فى موضوع هذا البحث ـ أن نميط اللثام عن طبيعة المبررات والعوامل الفنية التى كانت من وراء حصول الشاعر على حكم نقدي أجمع عليه العديد من نقادنا القدامى، وذلك فى إطار المقارنة بين كل من جرير وصاحبيه ؛ فى أيهم أعلى قامة فنية ، وأقواهم فحولة شعرية ، وبخاصة فى سياق التبارى الفني ، والمناظرات الشعرية التى خاضوها ، وانتشر صيتها فى كل ربوع المجتمع الأمــوي.

وقد عـدّ النقاد(١) ذلك الهجاء الساخر ، والتفنن فى صوره وتوليداته ، والذى استنفد كثيراً من شعر جرير، ملحمه الفنى الذى فاق فيه الأقران ، وبزّ به الفرسان ، وانتزع لجرير مكانة قَصُرتْ عنها قامة أنداده من الشعراء.

ولعل الشاعر العباسي بشار بن برد لم يكن بمنأى عن إدراك هذه الحقيقة،حين سئل عن الشعراء الثلاثة،فقضى بتأخر الأخطل عن صاحبيه،مفسّراً ذيوع شعره بتعصب بنى ربيعة له،ثم مفضلاً جريراً على الفرزدق،لأنه" يُحسن ضروباً من الشعر لايحسنها الفرزدق"(٢)، وإذا كان بشار لم يتناول بالتحديد نوع هذه الضروب التى يحسنها جرير،فإن معاصره الشاعر العباسي مروان بن أبى

---

(١)ابن سلام فى : طبقات فحـول الشـعراء، ٣/ ٣٧٨ ، وأبـو الفـرج فى : الأغـانى، ٥ / ٦٧ ، وابن رشيق فى : العمدة، ٢/ ١٤٦ ، وابن قتيبه فى : الشعر والشعراء، ١/ ٣١١.

(٢) طبقات فحـول الشعراء، ص ١٢٩.

حفصة لا يغفل هذا التحديد،وإن كان يسوقه على طريقة الشعراء،فيجعل الفخر من نصيب الفرزدق، ويستأثر بالمديح والهجاء لجرير :

ذهَبَ الفرزدقُ بالفخارِ وإنَما ٠٠ حُلْو الكَلاَمِ وفـرُّه لجريرِ[1]

وهو الأمر الذى يحتم على الباحث أن يجلّى عن الدوافع الحقيقية التى أسْلمته إلى هذه المكانة ، وشكلَتْ أسبابا طبيعية حتى تفجرت لدى الشاعر ينابيع إبداعه وتفوقه فى هذا المجال ، وفى رأيى أن ثمّـة عوامل عديدة ، يمكن رصدها على النحو التالى.

أولاً : العامـل النفسـي .

تتجلّى خطورة هذا العامل وانعكاسه القوى على مبررات عملية الإبداع لدى الشاعر، وذلك من خلال النظر الفاحص فى حياة جرير، وتتبع سيرورة نشأته ومرباه، وبيئته الاجتماعية التى تربي فيها واستقى منها، وهى بيئة فقيرة ومعدمة[2] أهل بلا محتدّ ، وجدود بلا مآثر ، وقبيلة بلا هيبة أو منعـة[3] الأمر الذى

---

(١) الشعـر والشعراء ١/ ٣١١.

(٢) طالـع المبحث الأول من هذا البحث.

(٣) روى صاحب الأغانى أن رجلاً قال لجرير من أشعر الناس ٠٠ ؟ فقال له : قم حتى أعرفك من هو، ودخل به بيت أبيه عطية وقد أخذ عنزة فاعتقلها ، وجعل يمص ضرعها ، فصاح به : أخرج يا أبت ؛ فخرج شبح دميم رت الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته ، فقال جرير : أتعرف من هذا الرجل ٠٠؟ قال الرجل لا ؛ قال هذا أبى ، كان يشرب من ضرع العنزة مخافة أن يسمع له صوت فيطلب منه لبن ، وإن أشعر الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعراً وفاز عليهم .

[الأغانـــى ، ٨/ ٥٣] .

انعكس على نفسيته بما نعده مركب نقص، يستشعر معه الضعة والهوان ، بل الخزى والعار، وبخاصة وهو يخوض معمعة حرب ضروس، فى معركة من التهاجى والمناقضة ، تتأسس مبادئها على عراقة المجد وتليد المآثر ، والفخر ببيوتات الشرف، فى حين أنه من كل هذه المفاخر صفر اليدين.

ومما يضاعف من هوانه ، ويعمق شعوره بالنقص ، وقوفه أمام عملاقين ينبتان فى فروع المجد ، وتتعرق أصولهما فى روحة العلياء ، لهما من تليد النسب وميراث الشرف ما يشمخان به فى أجواز السماء، كهذا (الفرزدق) الذى يتلفع باردية المجد بين أبوّة وخئولة، تراه فى صراعه المفاخر مع جرير وقد صعّر خده ، ومشى فى الأرض مرحا ، وأخذته ـ بين يدى جرير ـ العزة بالغلبة ، يعدد مفاخر آبائه ، ومآثر أصوله ، ورجالات عشيرته ، فيتيه فخراً ، وينتشى تعاليا ، وكم كان يسوء جريراً ، وتتمكن من نفسه مشاعر الخزى ، حين تصدك أسماعه إحدى قوارع الفرزدق من مثل قولــه: (١)

أحلامنا تزنَ الجبالَ رزَانـــــة ٠٠ وتخالنا جناً إذا ما نجهـلُ

وأنا ابن حنظلـــة الأغرُّ وإننى ٠٠ فى آل ضبّة للمعمَّ المخْولُ

خالى الذى غَضَبَ الملوك نفوسَهم ٠٠ وإليه كان حِباءُ جَفْنة يُنْقَلُ

إننى أتصور جريراً وقد تلقف واحداً من هذه القواذف ، كيف تنزوى نفسه بداخله، ويشعر بكل نقيصة بين جنبيه ، وبخاصة حين يخاطبه الخصم بأسلوب مزدوج، ففى الوقت الذى يفخر فيه الفرزدق بآبائه ، يهوَّن من آباء جرير

---

(١) ديوان الفرزدق ، شرح على فاعور، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٨٧ ، ص ٤٩١.

، معيراً إياه بهم ، مازجاً أداءه الشعري بأسلوب ساخر يبعث على الألم والمرارة ، من مثل قول الفرزدق: (١)

أولئك آبائى فجئنى بمثلهـــم ٠٠ إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المجامـعُ

بهم أعتلى ماحملتنْنى مُجاشِـع ٠٠ وأصْدَعُ أمرانى الذين أصارعُ

فيا عجباً حتى كليبُ تسبّـــنى ٠٠ كأنّ أباها نهشل أو مجاشــعُ

وَلهـذا الأخل الذى يخرج والفرزدق من مشكاة واحدة ، يتبوأ أهله مقعدهم فى مدارج المجد،وله من رجالات قومه ومآثر عشيرته ما يؤمن له باع الفخر والتعالى ، فيما عُـدّ ذلك سبباً فى استغناء الشاعر عن اللجوء إلى الفحش فى الهجاء ، أو الإيماء بالجنس والخوض فى الأعراض فى مناقضاته ، فغناؤه بقومه أبعده عما استعض به جرير سدّاً لتلمته ، وتكون النتيجة حينئذٍ أن جريراً يواجه خصماً آخر يناطحه بنفس السلاح الذى هو منه أعزل ، وأنه لا يزال يتلقى قوارع أخرى، يتلقاها هذه المرة من الأخطل ، حين يوجه إليه من مثل قولـه: (٢)

يا ابن المراغة إنّ عمىَّ اللذا ٠٠ قتلا الملوك وفككا الأغْـلالا

فانعقْ بضأنك ياجريرُ فإنما ٠٠ منتك نفسُك فى الخلاء ضلالا

منتك نفسُك أن تكون كدارم ٠٠ أو أنْ توازى حَاجباً وعِقـالا

---

(١) نفسه ، ص ٣٦٠.

(٢) ديوان الأخطل تح: مهدى محمد ناصر، دار الكتب العلمية ط٢ ، ١٩٩٤ ، ص ٢٤٦.

وتغدو دناءة الأصل عند جرير ، هى المسبّة التى يعلو مدرجها كل خصم يعتلى منبر الهجاء ضد جرير، فلا يلبث الأخطل هو الآخر أن ينفذ من هذه الثغرة ، فتراه يكيل لجرير فى قومه وعشيرته أقذع الهجاء، فيقول :

أما كليبُ بنُ يربوعٍ فليس لهم ٠٠ عند التفارط إيرادُ ولا صــدرُ[١]

مخلفون ويقضى الناسُ أمْرهمُ ٠٠ وهم بغيبٍ وفى عمياءَ واشعروا[٢]

مُلطمون بأعقارِ الحياضِ فما ٠٠ ينفكُّ نت دارميَّ فيهمُ أثــــرُ[٣]

قومُ أنابَتْ إليهم كلُّ مُخْزِيـةٍ ٠٠ وكلُّ فاحشـةٍ سُبّتْ بها مُضَـرُ[٤]

إن ثمـة دليلاً قوياً يشير إلى مدي التأثر النفسى الأسيف الذى مُنى به جرير من جرّاء هذا الهجوم الذى يتلقاه من خصومه ، وهو يكمن فى ردَّ فعله الذى حاول فيه سدّ ثلمته، ورد هيبته ، فذهب يلتمس له رجالاً عند الآخرين الأباعد ، حتى ارتفع عن عشيرته إلى ميم ومضر ، ولا أراه فى هذا الفعل إلا قد أزرى بنفسه ، وفضح قومه، فإنه لم يلجأ إلى شئ من ذلك إلا وتناولـه الناس باللوم والتقريع ، يعاتبونه كيف تفتقد فى قومك أسباباً وتلتمسها عند الآخرين ٠٠ ؟ !!

---

(١) التفارط : التقدم الاستسقاء من الآبار ـ الإيراد: ورود الحاء ـ الصدر: الصدور عنه.

(٢) يريد أنهم لا يستشارون فى شئ ، ولا يعبأ بهم بسبب هوانهم.

(٣)يقول إنهـم يلطمـون حيـث يكونـون وراء النـاس عنـد الحيـاض ، تلطمهـم دارم عشـيرة الفرزدق .

(٤) أنابت :رجع إليهم ، وانتسبوا بها.

فقد وقع الناس باللوم على جرير ، حين ارتفع عن عشيرته وباعد حتى جاء بمضر ، وحين فاخر بالخليفة الأموي ، مدعياً الانتساب إليه كأبناء عمومة ، وذلك فى قولـه فى بنى الفدوكس رهط الأخطل: (١)

مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم ٠٠ ياخزر تغلب منْ أبٍ كأبينا(٢)

هذا ابنُ عمّى فى دمشقَ خليفة ٠٠ لو شئتُ ساقكم إلىّ قضينا(٣)

فقيل له : " يا أبا حزرة لم تصنع شيئاً ، عجزت أن تفخر بقومك حتى تعديت إلى ذكر الخلفـاء: "(٤)

والأمر نفسه،حين دفعه الشعور بضعة قومه أن يفخر ببنى رياح (أخى كليب)(٥)

أتوعدُني وراء بنى رياحٍ ٠٠ كَذَّبْتَ لَتَقْصُرَنّ يَدَاك دوني

فقال بنو كليب (قبيلة جرير) ـ وقد شعروا بذلك ـ ماهجانا أحد قط بأشد مما هجوتنا به ، حين استوى لك أن تقول :" وراء بنى كليب " فرغبت عن آبائك إلى أعمامك(٦).

---

(١) ديوان جرير ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٩١ ، ص ٤٧٧.

(٢) الخزر : ضيق فى مؤخر العين ، يستعمله جرير للكناية عن اللؤم.

(٣) قضينا : عبيداً أذلاء.

(٤) الشعر والشعراء ، ١/ ٣١٤.

(٥) ديوانـه ص ٤٧٥.

(٦) الموشح ، للمرزبانى ، طبعة الخانجى ، ١٩٣٨ ، ص ١٢٠.

وإبّـان مرض جرير يعوده أناس كثيرون ، فيعدّ ذلك ـ من فرط شعوره بالهوان ـ أمراً كبيراً ، فيمتنه عالياً بقولـه[1].

نفسى الفداءُ لقومٍ زينوا حسبى ٠٠ وإنْ مرضتُ فهم أهْلى وعوادي

تتبدّى لنا الحقيقة ـ إذن ـ أن النشأة المعدمة التى تربى فيها جرير ، ودناءة أصله الذى يرجع إليه، وهوان عشيرته التى نبت فيها، وقلة رجالات قومه، وهوان أهل أسرته، كل ذلك أسهم بقدر كبير فى أن تتشبع نفسه بإحساسه بالتضاؤل، وشعوره بالنقص، وماذا عساه جرير أن يفعل ـ وهو المهيض الجانب ـ أمام المتعالين عليه ، الشامخين بأنوفهم ، غلا أن يلجأ إلى مصادر تعويضية تقيم له أوده فى مواجهة الخصوم ، فلجأ إلى السخرية باباً واسعاً فجرَ فى نفسه الكوامن المخبوءة متخذاَ منه أسلحة مشروعة وغير مشروعة ، من الهزء والإضحاك ورصد العيوب، والخوض فى الأغراض ، والتشهير بالأفراد ، مثلما فعل مع الفرزدق حين تناهت إلى سمعه نقائصه الشخصية ، فرصدها واحداً تلو الآخر ، وصنع منها سخرياته ومضحكاته ، فنوّع فيها ، وولد منها ، وادّعى عليه مبالغاً حتى صار ادعاؤه كأنه حقيقة واقعـة.

وذلك هو السرّ فى وجود هذه المفارقة الماثلة للعيان ، ممثلة فى هذا السبق الذى استحوذ عليه جرير فى مجال الفن الهجائى الساخر ، أمام الأخطل والفرزدق[2]، فى حين أن هذين الأخرين يمتلكان من أسباب الفخر وأسلحة

---

(١) ديوانـه ص ١٠٨.

(٢) حكم بهذا السبق الفنى العديد من النقاد القدامى؛ أمثال : ابن سلام، وابـن قتيبـة ، وأبـى الفرج الأصفهانى، وابن رشيق (طالع بداية المبحث الثالث من هذه الدراسة) وانظر: الـعصر الإسلامي للدكتور شوقى ضيف، ص ٢٨٦.

الهجاء ما يبكتان به خصمهما ، ويحشرانه فى زاوية ضيقة ، إلا أن هذا العامل النفسى قد فجر فيه لساناً صارما ، وذهناً منقدحاً ، يسعفانه سريعاً فى تحقيق سوانحه الإبداعية التى جاء بها فى أسلوبه الساخر.

ثانياً : العامل الاجتماعـي

فى أحد التحليلات النقدية التى عرض لها الباحثون فى درس هذه الظاهرة عند الشاعر ، ذهب الدكتور (نعمان طه) فى تفسير خاصية السخرية تفسيراً اجتماعياً ، فيما يعدّ جريراً مثالاً للديمقراطية الشعبية البسيطة ، والتى حاولت أن تأخذ مكانها فى مجتمع تسيطر عليه (الأرستقراطية) الفنية التى كان يمثلها الفرزدق ، والتى تورثت عن الجاهلية فقال :" ولا شك أن جريراً قد أعدته أجيال وأجيال منذ القدم ، ليقوم بما أراده مجتمعه ، وذلك لأن أجداده منذ القدم قد تسلسل فيهم هذا الشعور بالظلم الاجتماعى ، فأخذ ينتقل من أب إلى ابن إلى حفيد ، حتى تبلور فى مثل هذا الشاعر الذى منحه الله جهازاً عصبياً حساساً ، انتقلتْ إليه الآلام بالوارثة منذ قديم الزمان ، فكانت عود الثقاب الذى أشعله بالسخرية ، يحاول بها تضخيم عيوب هذه الطبقة التى تزعم لنفسها العظمة والمجد ، وبأقدامها تدوس بقية أفراد المجتمع الضعيفة ، معتمدة على أن ما تحفل به من عيوب قد ستره المجد الزائف"(١).

ولعـل جريراً وهو يسخر من هذا المجتمع المتعالى فى شخص الفرزدق، لم يكن يرمى إلى هذه الفلسفة بمعناها الحرفى ، ولعله لم يكن قد وصل على هذه الفلسفة حتى يفطن إلى أنه بشكل ما يقوم على خدمة مبادئها ، كأصحاب المذاهب والفلسفات فى السياسة والاجتماع ، ولكنه كان البؤرة التى تجمع فيها إحساس

---

(١) انظر: جرير .. حياته وشعره ـ د. نعمان طه ـ طبعه دار المعارف ـ ١٩٦٨ ـ ص ٣٣١.

الشعب أو المجتمع المهمش ، حتى أعطى القدرة على الكلام أو الإشعاع، فعبر وترجم عن إحساس مجتمعه ، ودافع عنه ، ضد ماناء به من عـلل وآلام.

والعيوب التى سخـر بها جريـر ليسـت كلـها عيوباً شخصـية فى الفرزدق أو الأخطل أو غيرهما، بل هى عيوب اجتماعية تتمثل وتظهر فى المجتمعات التى ينتمون إليها ، فتكون السخرية من هذا المنطلق هى فن إبراز الحقائق المتناقضة، والأفكار والمعتقدات السلبية التى تغرّي بمقاومتها والخروج عليها، وهى دعوة لتهيئة النفوس للثورة على الظلم والانحراف ، وتفتح العيون على النقائض التى يحاول أصحابها أن يبعدوها عن مواطن الضـوء.

من ثـمّ فقد عمد جرير إلى رصد العديد من هذه الحوادث، والعمل على تضخيمها فى إطارها الاجتماعى، وبخاصة ما يتعلق بالحوادث النسائية (موطن إحراج الخصم) ، كحادثة جِعْين ـ أخت الفرزدق ـ والتى رميت برجل من بنى سعد زوراً ، وأم الفرزدق التى رماها جرير بالقيون[1] وكذلك حادثة محاولة الفرزدق تزوج حدراء بنت زيق الشيبانية وما حدث فيها[2]، وكذلك رصده

---

(١) كان لصعصعة ـ جدّ الفرزدق ـ عبيد فى الجاهلية يعملون بمهنة (القين) أى الحداد ، فاتهم جرير الفرزدق فى أمه بهؤلاء القيون ، وكم كان جرير يبدئ ويعيد ويولد من هذه الفكرة، حتى جعل نسل كل بنى مجاشع قيونا ، وكل آباء الفرزدق الذين يعتلى بهم إنما هم أولاد عبيد وأولاد زنا..

(٢) حذراء بنت زيق بن بسطام الشيبانى ، خطبها الفرزدق على حكم أبيها ، فلما ذهب ليتزوج بها وجدها قد ماتت ، فترك لها صداقها عند أبيها ولم يرجع بشىء. [النقائض ، ص٢٥٣].

لبعـض العيوب الاجتماعية مثل قضية اشتغال عبيد بنى مجاشع فى الجاهلية بصناعة الحديد، وهو أمر كانت لا تستسيغـه النخوة العربية حينئذٍ ، مما يؤكد فى نهاية الأمر أن العامل الاجتماعي بهذه الصورة قد شكل أحد الأسباب التى أورثتْ الشاعر حقداً دفنياً ، يقوم على إثره باستخراج كل مثلبة ، ورصد كل عورة ، يمكن أن تنقص من قدر هذه الطبقة أو تزرى بأصولها المتعالية .

ثالثاً : الطابع الفنـي

ونقصد بالطابع الفنى ، ذلك العامل الذى يتمثل فى الطبيعة الفنية التى تطور على إثرها غرض الهجاء فى عصر بنى أمية ، حتى أخذ صورة مغايرة لما كان عليه فى الجاهلية ، تحددت ملامحه فى هذه التركيبة الفنية التى امتزجت فيها عناصر الفخر والهجاء والسخرية ، اصطلح على تسميتها بـ (النقائض) ، وهى نوع شعرى قام فى الأساس على موضوع الهجاء المرتبط بالعصبيات القبلية ، لكنه يختلف عن الهجاء فى الجاهلية ، فى أن هذا الأخير كان الشعراء يخوضون فيه معارك كلامية تراق فيها الدماء ، ويتصدون لنزاعات وحروب هم فيها السنة قبائلهم، والأسلحة المشرعة فى وجوه الأعداء ، فى حين أن النقائض التى قامت بين جرير وخصومه لم تكن إلا نوعاً من المفاخرة والمهاجاة فى إطار سلمىّ لا تبلغ أن تثير الأحقاد ، أو تؤجج العداء ، بل " هى عمل يراد به ـ قبل كل شئ ـ تسلية الجماعة العربية الجديدة فى البصرة ، حيث تكوّن المجتمع العربى هناك فى شكل مدينة لأول مرة فى تاريخ القبائل التى نزلت البصـرة "[1].

---

(١) انظر: التطـور والتجديـد فى الشـعر الأمـوى ، د٠ شـوقى ضـيف ـ طبعـه دار المعـارف ، ص١٨٢.

والحـق أن النقائض لم تكن تخلو فى مبتداها ومسارها من عاملين جوهرين:

أولهما ، العامل القبلى الذى شكل الأساس الذى نهضت عليه النقائض فى العصر الأمـوى ، ومن قبله فى العصر ، الجاهلى ، فالشاعـــر فى هذه القصائد لا يتحدث عن نفسه قدر ما يتحدث عن القبيلة التى ينتمى إليها نسباً أو ولاءً ، وهـو لا يعيب خصمه بنقائصه الذاتية قدر ما يطعنه فى آبائه وأجداده ولا يركز على علاقاته الخاصة بخصمه قدر ما يركز على علاقات قبيلته بقبيلة خصمه ، وما كان يدور بين القبيلتين من صراع، وما أسفر عنه هذا الصراع من انتصارات وهزائم، ومن ثم كان العامل القبلى هو المحور الأساسى الذى قامت عليه النقائض، وظل كذلك حتى بعد أن تطورت على صورتها النهائية فى العصر الأمـوى.

ثانيهما، العامل الفنى الذى تمثل فى حرص كل شاعر على إبراز مهارته الفنية وبراعته فى إفحام خصمه برد معانيه وصوره ، وقوافيه وأوزانه ، كما يتمثل فى مقدرته على السخرية من صاحبه ، وتحقيره بتصويره فى صورة كاريكاتيرية تبالغ فى تجسيم العيوب الحسية والنفسية ، فيستثير بذلك منابع التفكه فى وجدان الجماهير، ويشركهم معه فى الهزؤ بصاحبه والتهكم به أو بآبائه ، وهذا ما كان يفعله جرير حين كان يرمى خصمه الفرزدق بأنه قين وابن قين ، لمجرد أن جده صعصعة كان يمتلك قيوناً كثيرين فى الجاهلية ، ومن ثمّ يستغل جرير هذه الناحية فى تاريخ صاحبه، فيحاول تضخيمها وتكبيرها حتى تغطى على كل ما عداها ، فلا يبقى منه إلا أنه قين من صلب قين ، ولا يبقى من آثاره فى الحياة سوى المرجل والكير والقدوم والكلبتين ، وغيرهما من أدوات الحدادة ، وهكذا تتسع مواطن

الضعف فى شخصية الخصم حتى تحجب كل ما سواها ، فتهيج بذلك نوازع السخرية والتندر لدى القطاعات العريضة من جماهير النقائض.

ومن ثم علينا أن ندرك هذه الحقيقة النقدية التى تؤكد أن هذه النقائض لم تكن سوى هذا الفن الجديد فى صورته الفنية المعقدة ـ الذى ظهر على أيدى الفحول من شعراء بنى أمية ، والذى وجد فيه مجتمع البصرة بغيته من اللهو والتسلية وقطع الفراغ ، ونموذجاً من التبارى الفنى فى إطاره الشعبى على مسرح (المربد) الكبير ، حيث تختلف إليه الجماهير ، وتتحلق للاستماع إلى الشعراء ، وبخاصة إلى الأحداث التى بين جرير والفرزدق ، الأمر الذى يسمح بخلق هذا السياق الفنى من السخرية والفكاهة ، وتندر كل خصم على صاحبه ، سعياً إلى إرضاء هذه الجماهير، والتى غالباً ما تقطع عملية التناقض بين الشاعرين بالإجاب والتصفيق[1] .

رابعاً : الطابع الشخصي

فى هذا العامل نستند إلى مجموعة من الملامح الذاتية والتكوين الشخصى عند جرير ، تدفعنا إلى القول بتأثيرها الفاعل فى تشكيل مزاجه النفسى الذى استقت منه شخصيته الإبداعية والفنية ، حتى جعل منه فارس الحلبة فى هذا الصراع الساخر ، بينه وبين الخصوم من الشعراء.

وأول منا تتبدى لنا من ملامحه فى هذا الصدد ، هو ما نستشفه من أقوال الرواة من أن جريراً نشأ ضعيف البنية ، قصيرا دميماً[2] ولعل ضعفه كان ناشئاً عن

---

(١) الأغانى ، ٨/ ٢٩.

(٢) النقائص ، ١/ ٨٢٧.

ولادته لسبعه أشهر[١]، وقد ورد ذلك فيما عير به الفرزدق جريراً بقوله : (وأنت ابنٌ صغرى لم تتم شهورها) ، ويؤكد الرأى الطبى أن الطفل الذى يتعرض لهذه الظروف يكون قليل الوزن،ويصير عرضة للضعف والأمراض أكثر من غـيره، وأنه يحتاج إلى عناية خاصة ، لأن رئتيه وقلبه وجهازه العصبى ، وغير ذلك من الأعضاء ضعيفـة الاحتمال بسبب عدم اكتمال نموها[٢]، ومن ثم ندرك كيف انعكس ذلك على ضعف بنيته،وشدة حساسيته،وانفعاله المزاجـي لأى مؤثر خارجي.

ومـن ناحية أخرى ، فقد كان أبوه وأمه أبناء عمومة ، إذ إنهما يجتمعان فى الجد الأكبر؛ عوف بن كليب[٣]، وهو بدوره عامل آخر يؤثر فى تكوينه العقلى والبدنى، ذلك لأن " زواج أبناء العمومة يضاعف فرص وراثة ما فى الأبوين من صفات الضعف الملحوظ ، وما يقال فى هذا الصدد عن الأسرة ، يقال عن القبائل والشعوب "[٤]،

وإذا علمنا أن أباه عطية كانت به ضعفة (وهى ضعف الفؤاد)[٥]وأن خاله (معرضاً) كان يرمى بالحمق أدركنا إلى أى حدّ ورث جرير تلك النقائض التي تؤثر فى أعصابه ، فتظهره شديد الحساسية ، سريع الغضب ، وعمق هذه

---

(١) الشعر والشعراء ، ١/ ٤٣٥ ، والأغانى ، ٧/ ٥٠.

(٢) مقال للدكتور صلاح عطية، مجلة الدكتور القاهرية ، العدد ٧١ ، السنة السادسة ، ص ٦.

(٣) الأغانـى ، ٧/ ٣٦.

(٤) مقال للدكتور على بدر الدين ، مجلة الدكتور ، ع١١ ، السنة الأولى ، ص ٣٥.

(٥) الشعر والشعراء ، ١/ ٤٣٥.

الحساسية شعوره النفسى بتضاؤل شخصيته ، حيال ماعاناه وتربى عليه من فقر وحياة معدمة مع أبيه ، فلا هو ذو نسب كريم يمده بالفخرة ، ولا ذو عنزة تمنحه المنعة والهيبة، وإنما كان شأنه فى كل هذه الأسباب يعيش حقيقة متواضعة ، وهى الحقيقة التى ذهب من خلالها بعض الباحثين،يبرر طبيعة الأخلاق السيئة التى درج عليها جرير، مثل الدكتور نعمان طه الذى صرّح بقوله : " ولهذا الأصل الوضيع الذى ورثه عن أبيه وخاله، فقد كان فى أخلاق جرير شعبة من أخلاق السّوقة وأراذل الناس الذين لا يدفعهم أصل كريم لأن يتعففوا عن ارتكاب الدنايا "[١]، وذهب البعض الآخر ليبرر بها لجوءه إلى العنصر الساخر فى مهاجاته للآخرين؛ كما هو الحال عند الدكتور محمد فتوح أحمد حين صرح بقوله:" ولعل إحساسه بضآلة أصله هو الذى دفعه إلى اصطناع السخرية والمبالغـة فى أهاجيه، ومن ثمّ تدفقت على لسانه لاذعة مريرة حادة ، تجعل من هين العيوب جبالا من العورات والمثالب،وتتعقب أدنى الهفوات،فإذا لم تجدها أقدمت على اختراعها إذا اقتضى الأمر "[٢]

ويؤيد ذلك مارواه صاحب الأغانى، من أن جريراً كان أعق الناس بأبيه[٣]، وكذلك ماروى عن حدة لسانه وسوء خلقـه، حين كان بحضرة الوليد بن عبد الملك وكان عنده الشاعر عدىّ بن الرقاع العاملى، الذى لم يتعرف عليه من قبل ، فسأل الخليفة: أتعرف هذا .. ؟ قال : لا ياأمير المؤمنين ! قال : هذا عدى

---

(١) انظر : جرير ، حياته وشعره ـ د/ نعمان طه ، ص ١٧٩ .

(٢) انظر: الشعر الأموي ، دراسـة فى التقاليـد والأصـالة الأدبيـة ـ مكتبـة الشـباب ، ١٩٧٧، ص١٦٩.

(٣) الأغانـى ، ٧/ ٦٦.

بن الرقاع! فقال جرير: فسرُّ الثياب الرقاع، قال ممن هو، قال: من عاملة، فقال جرير: هى التى يقول الله تعالى فيها:(عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية)[1] ثم أردف ذلك بقوله:

يُقصَّر باعُ العاملىَّ عن العُلا ،، ولكنّ أَيْسَرَ العاملىّ طويلُ

فأثار حفيظة العاملى حتى ردّ عليه بقولـه:

أ أمّك كانتْ أخبرَتْك بطوله ،، أَمْ أنت امرؤُ لم تَدْرِ كيف تقولُ

فلما أخزا العاملى بهذا الردّ ، توعده جرير، ولكن الخليفة أجاره منه[2] .

وعجب أن تجتمع فى هذه الشخصية ملامـح إنسانية ، مثل الرقة والدماثة، فتصدر عنه روائع من الشعر الوجدانـى، فى مجالات الرثاء والنسيب والغزل، ثم تكون منه هذه الحساسية المفرطـة، وجهازه العصبي المضطرب، فتصدر عنه روائع أخرى، لكنها من جنس سخرياته اللاذعـة، وتهكماته المريرة، وقفشاتـه المضحكـة، حتى أنه اختط لنفسـه فى هذا المجـال مذهباً متفرداً على غير ماتعارف عليه الشعراء، فجميعهم يرى قصر الهجاء أجود، وترك الفحش فيه أصوب، إلا جريراً، فإنه قال لبنيه : إذا مدحتم فلا تطيلـوا المهادحة ، وإذا هجوتم فخالفـوا . ويقول : إذا هجوت فأضحك[3].

---

(١) من سورة الغاشية ، آية ٨٨.

(٢) الأغانى ، ٨/ ١٧٣ ، وطبقات فحول الشعراء ، ٢/ ٣٨٤ ، والبيت ليس فى ديوانه.

(٣) العقد الفريد ، ٣/ ٣٩٨.

المبحـث الرابــع
التشكــيل بالأسلــوب الساخــر

إننا نطلق كلمة السخرية، ولا نكاد نملك حيالها دلالة قاطعة تشى بمدلولها الحرفى للكلمة، وذلك تشقه من ظلال وألوان ، وما تكتنفه من سحر وجاذبية، إننا نحسن من الاستعمال العام للكلمة ـ قبل أن نبحث فى مادتها ـ أنها ظاهرة خفيفة الظل ، سهلة الموقع ، جذابة فضفاضة ، تشيع السحر فى الأسلوب الأدبي ، وتخلّله كالحياة نفسها وهى تسرى فى الكائـن الحى.

لذا يمكننا أن نتصور السخرية وهى تعنى الضحك والاستهزاء والتهكم، وهو الاستخفاف بالشئ ، والعبث لهادف به ، إنها تثير الضحك فى هزل أو غير هزل، لأنها كثيراً ما توحى الجدية رغم ظاهرها الضاحك ، فتوجه اهتماماً خاصاً إلى عيب ما ، تجسم هذا العيب ، وتبالغ فيه ، وتسعى إلى إبرازه بوسائل عديدة.

إنها ترقى بالفكاهة إلى المستوى الأكثر ذكاء ولباقة ، فتجعل لها معنى، وتعطيها قدرة خاصة على أن يكون لها هدف ، وأن تخدم هذا الهدف ، وأن تحتال لتحقيقه ، وأن تكـون لها إمكانية التأثير ، وهى لذلك تتخذ مادتها من العيوب والنقائض التى لا تطيق لها وجوداً ، ولا ترضى بأن تتركها تعيش فى سلام وأمان ، دون أن تدق عليها دقاً خفيفاً أوثقيلاً ، حتى تنبه إليها ، أو تنبه فيها عوامل المقاومة، وتثير الرغبة فى الانتصار عليها.

عند هذا الحدّ يمكن أن نتساءل ، تحت أى نوع يمكن أن ندرج سخرية جرير، إننى لا أتصور دلالة يمكن أن تنسحب على سخرية جرير إلا تلك التى ترتبط بمدلولها اللغوى الذى أشارت إليه المعاجم اللغوية،وهو مدلول ينسرب نحو معانـي

التسخير والتذليل والقهر : معانى الهزء والاستخفاف والإنقاص[١] وهى دلالات اجتهد جرير كثيراً كى يلبسها بالخصم ، وأن ينال منه بها ، ويحقق عليه انتصاراً يرى صورته فى إعجاب الناس واحتفاء الرواة بشعره.

على أن صنيعه فى هذا الشأن ، لايضاد أبداً أن يجرى أسلوبه فيها مجرى الفكاهة الضاحكة ، وهى تعدُّ حينئذٍ أرقى أنواع الفكاهة ، فهجاؤه الساخر ، مع فظاظته وخشونته، وعلى الرغم مما يبعثه فى نفسه المهجوّ من ضيق وألم ، فإنه يثير الضحك عن طريق إبراز العيوب وتجسيمها ، والمبالغة فى تصويرها ، وعبر صور وأداءات فنية ، يمكن أن نجلّى عنها ، ونعدّد صورها فيما يلـى :

السخريـة بالنقض

هذه أولى صور السخرية التى نقوم برصدها فى عمل جرير،وهى صورة تعتمد أسلوب النقض منهجاً أساسياً فى تحقيق العنصر الساخر،واستغلال عناصر الأداء الفنى،من وحدة الوزن والقافية ومقارعة المعانى، فى تعميق جانب الإضحاك والتفكه، وهو أداء فنى يدل بجلاء على مستوى الصنعة الفنية، والبعد الثقافى الذى بلغته النقائض على أيدى شعرائها فى هذا العصر ، ذلك لأن الشاعر عليه أن يتحرى نفس الوزن وذات القافية اللذين التزم بهما صاحبه ، وتلك مهمة صعبة نسبياً من الناحية الفنية ، لأنها تترك للشاعر الثانى مهمة الاختيار، بل تضع أمامه نمطاً إيقاعياً عليه أن يتوخاه، إذا أراد إثبات تفوقه على خصمه، فالأول يتحى، والثانى كأنه يقبل هذا التحدي حين يقبل هذا الالتزام الموسيقى.

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور، ومختار الصحاح للرازى، ومعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بمصر ـ مادة سخر.

كذلك يتصدى جرير لنقض مجموعة الصور والمعاني التى دارت عليها قصيدة صاحبه ، ومثل هذا اللون من النقض يحتاج إلى إلمام ثقافى واسع ، كما يحتاج إلى حدّة ذكاء تعينه على اصطياد المعني الساخر، وتوجيهه إلى الخصم ، بل وإفشال معانيه التى تلقفها منه ، فها هو ذا جرير تصطك أسماعه ببعض صواعق الفرزدق فاخراً بعزة قومه، وسيادة آبائه ، معبراً جريراً بهوان قومـه فيقــول :

إنّ الذى سَمَكَ السماء بنَى لَنَا ٠٠ بيتاً دعائمــه أعزُّ وأطـولُ

بيتاً زرارةُ محتـبٍ بفنائــه ٠٠ ومجاشعُ وأبو الفوارس نَهْشَلُ

لا يحتبى بفناءِ بيتك مثلهــم ٠٠ أبداً إذا عدّ الفعالُ الأفضــلُ[1]

فيجيبه جرير بقولــه: [2]

....

أخزى الذى سَمَكَ السّماء مجاشعاً ٠٠ وبنى بناءَكَ فى الحضيض الأَسْفلِ

بيتاً يَحَمّمُ قينُكم بفنائـــــه ٠٠ دنسَـاً مَقَاعدُه خَبيثَ المدْخَــلِ

فلا يملك جرير إلا أن هدّم عليه بيته،وجعل آباءه مجرد قيون[3]لايحسن الافتخار بهم،وما فتئ الفرزدق يشهر هذا السلاح فى وجه جرير- الفخر

---

(١) ديوان الفرزدق ، ص ٤٨٩.

(٢) ديوانه ، ص ٣٥٧.

(٣) قيون : جمع قين ، وهو الحداد ، مهنة امتهنا عبيد(صعصعة) جدّ الفرزدق ، فنعت بها جرير كل جدوده وآبائه ، وهى ملمح يكاد جرير لا ينساها فى نقيضة من نقائضه، محاولة فى هدم بنائهم الشامخ الذى يعتلى به الفرزدق.

بآبائه،وتعداد مآثرهم،وما انفك جرير يفلّ سلام خصمه بهذا الملمح الذى تصيده؛ ماهم إلا قيون.

يقول الفرزدق فاخـراً: (١)

هو السيخُ وابنُ الشّيخِ لا شَيْخَ مثلُهُ ٠٠ أبو كـلّ بيتٍ رَفيعِ الآعَائِمِ

فيجيبه جرير: (٢)

هو القينُ وابنُ القينِ لا قيْنَ مِثْلُهُ ٠٠ لِفَطْح المَسَاحى أَوْ لجَدْلِ الأَدَاهِمِ

وحين يقول الفرزدق: (٣)

أحلامُنا تَزِنُ الجبالَ رَزَانةً ٠٠ وتخالُنا إذا ما نجهلُ

يجيبه جرير بقولـه: (٤)

أبْلغ بنى وَقْبَان أنّ حلومهم ٠٠ خَفَتْ فلا يزنون حَبَّـة خَرْدَلِ

وحين بقول الفرزدق : (٥)

حُلَلُ الملوك لباسُنا فى أهْلِنا ٠٠ والسَابغاتِ إلى الوَغَى نَتَسرْبلُ

يجيبه جرير بقولــه: (٦)

لا تذكروا حُلَلَ الملوكِ فإنّكم ٠٠ بَعْدَ الزُّبيْر كحائِضٍ لم تغْسِلِ(٧)

---

(١) ديوان الفرزدق ، ص ٣٦١.
(٢) فطح المساحى : تسويتها وتعريضها ـ الأداهم : القيود الحديدية.
(٣) ديوان الفرزدق ، ص ٤٩١ .
(٤) ديوانه ، ص ٣٥٩.
(٥) ديوان الفرزدق ، ص ٤٩١ .
(٦) ديوانه ص ٣٥٨.
(٧) يشير جرير إلى حادثة مقتل الزبير بن العوام الذى استجار بقوم الفرزدق فلـم يجـيره حتـى قتل.

فأنت تلاحظ أن جريراً ـ من حرّ المهاجاة بالفخر ـ يرغب فى الطريق السهل الذى يفديه من ضربات موجعة، فيطفئ حرارة الجدّ ببرودة الهزل، ويقابل المهاجم فى سلاحه ولأمته وهو فى ثوب المهزج المضحك ، وهو فى هذا المسلك يؤكد فكرة مذهبه الذى يناه فى الهجاء ، مخالفاً به جلّ الشعراء ، فقد كان يوصى أبناءه بقصر المديح وإطالة الهجاء ، وأن يمزجوا الهجاء بالضحك.

وقد التقى جرير والفرزدق فى منى حاجّين ، فقال الفرزدق لجرير:

فإنّك لاقٍ بالمنازل من مِنًّى ٠٠ فَخَاراً فَخَبّرنى بمَنْ أنتَ فَاخِرُ

فقال له جرير : بلبيك[1] اللهم لبيك إنه عهدنا بالفرزدق أن يشهر سلاح الفخر فى وجه جرير ، وإنه الذكاء الساخر الذى ينجو به جرير ؛ بالهزل والضحك يلتقطها لإيقاع الخزى بهم ، بهذا أعور بنى نبهان[2] يتعرض لجرير بقولـه: [3]

أقولُ وأصْحابى النّجاءُ فإنّهُ ٠٠ كَفَى الذمَّ أنْ يأتى الضيوفَ جريرُ

زأنت كليبيٌّ لكلْبٍ وكَلْبــةٍ ٠٠ لها عند أطنَابِ البيوتِ هريــــرُ

فتسخ صورة(العور) فى ذهن جرير،فيلتقطها ملمحاً لتهكمه، حتى يجيبه بقوله:[4]

وَجَدْنا بنبى نَبْهانَ أذنابَ طَـيءٍ ٠٠ وللنّاسس أَذْنابُ تُرىَ وَصْدُورُ

---

(١) الأغانـــى ، ٨/ ٩٢.

(٢) هو سُحْمَة الأعور النبهانى ، كانت له امرأة من طئ ولدتْ له فى بنـى سـليط فـأعطوه ثـم حملوه على جرير فلم يعطه ، فهجاه [الأغانى ، ٨/ ٣١].

(٣) الأغانـى ، ٨/ ٣١.

(٤) ديوانــه ص ٢٠٣.

وأعورَ من نبــهانَ أمّا نَهَارُه ٠٠ فَأَعمى وأما لَيْلُهُ فَبَصِــيرُ

ولا مانع أن يكون له ردّ مماثل ، يمتزج بمسحة من الإفحاش، طالما أن الخصم امتاح له من نفس المعين ، كما هو الحال عند الأخطل الذى يملك من أدوات الهزء والاستخذاء، حتى يسدّد فى وجه جرير من مثل قولـه:(١)

قومٌ إذا استَنْبَحَ الأضيافُ كَلْبَهُمُ ٠٠ قالوا لأُمّهم بُولى عَلَى النّارِ

فتمنعُ البَوْلُ شُحّاً أنْ تجودَ بـهِ ٠٠ ولا تجودُ به إلا بمقْــدارِ

فيجيبــه جرير مكتفياً هنا بمقارعـة المعنى:(٢)

والتغلبيُّ إذا تَنَحْنَح للِقـرَى ٠٠ حَـكّ اسْتَـه وتمثّـلَ الأمثـالا

وأنت تدرك مدى ما تنضح به الصورة الساخرة من تهكم واستخذاء من قبل الأخطل ، فلم يكتف بنعت قوم جرير باللؤم والاناءة والفعل المبتذل ، وإنما جعل نارهم أيضاً حقيرة ضئيلة ، يطفئها الماء القليل ، من ثم فقد أردفها جرير من مثل جنسها لكنها ممزوجة بالفكاهة ، تحمل كل ما أراده من سخرية بصاحبه.

ولا يزال هذان القرنان يتهاجيان، حتى خص الأخطل الموت ، فقيل له ألا توصى ٠٠ ؟ فقال تـواً :

أوصَّى الفرزدقَ عند المماتِ ٠٠ بأمَّ جريرٍ وأعيارِهـا(١)

---

(١) ديوان الأخطل ، ص ١٦٦.

(٢) ديوانه ص ٣٦٢ يصف التغلبيين بالشحّ والـدناءة اللـؤم ، فهـم يتنحنحـون عنـد مقابلـة الضيوف ويأتون بحركات دنيئة ، ويلتمسون المعاذير بضرب الأمثال.

فلم يكد يسمع جرير بهذه السخرية حتى ردّ عليه بمثل قافيتها ووزنها:[٢]

زار القبورَ أبو مالكٍ ٠٠ فكان كَأَلأَمِ زوّارِهــا[٣]

السخرية بالمعايرة :

لجأ جرير على أسلوب المعايرة ، كأحد الأفكار الهجومية التى توفر له فضاءً رحباً من المثالب والعيوب ، حسيّة كانت أم معنوية ، محاولة فى تطويق الخصم بحزام من السخرية الشاملة والمتنوعة ، وجعلها سبباً فى صد هجماته العنيفة ، وبخاصة فيما يتعلق بالجانب الذى يعاير به فى قومه ، فقصد بهذا الأسلوب عملية من الاستباق الواقى لردع الخصم وتبكيته، والتنويع فى تسديد ضرباته الساخرة ، ومن ثم ضمان تحقيق الغلبة والفوز.

وقـد عُـدّ هذا الأسلوب قاسماً مشتركاً بين الخصوم المتصارعة، ففى الوقت الذى يقوم فيه الخصوم بمعايرة جرير بدناءة أصله، وهوان قومه،نراه وقد رصد فيهم جملة من المعايب ، استخلصها فى سياق العرف الاجتماعى، وماجرى عليه الناس من عادات وتقاليد، كاحتراف المهن التى يحتقرها المجتمع والفجور الأخلاقى والعيوب الاجتماعية كالبخل والجبن،فضلاً عن الكثير من العيوب الحسية للشخصى.

---

(١) أعيارها:جمع عير، وهو الحمار، يعير به قوم جرير لأنهم كانوا رعيان حمر،وليس لهم خيول وجمال.

(٢) ديوانــه ص ٢٣٥.

(٣) أبو مالك : كناية الأخطـل .

وفى سياق نظرة العرب المتواضعة للمهن والحرف،واحتقارهم لأصحابها[1] نرى جريراً وقد نفذ من هذه الثغرة ليعيّر الفرزدق بمهنة (القيون) التى كانت لبعض جدوده فينوع فى دلالتها ، ويولد منها الكثير من الصور الساخرة، مشقباً ومفرعاً،حتى ليدلل بوضوح على الطبيعة الجدلية التى وصل إليها العقل العربى فى هذا العصر، فتجده وقد عدّد ونوّع وغيرّ فى سياقات الاستخدام لأدوات الحدادة ، من الكير، والعلاة ، والقدوم ، والكلبتين والميشار ، وغيرها ، وقد جعل من هذه القضية مقصلته التى حَزّ بها رقاب رجالات الفرزدق ، وصخرته التى تحطمت عليها كبرياؤه بآبائه وسيادة عشيرته.

من ثم تجد معظم ما وجه جرير من تهكم ساخر ، وجهه نحو آباء الفرزدق بمعايرتهم بهذه المهنة، من كثرة اعتداد الفرزدق بهم ، وذكر مآثرهم ، مما اضطر جريراً أن يناطح هذه الصخرة بالعديد من الأسلحة ، منها هذه المعايرة التى مافتئ جرير يذكرّ بها الفرزدق فى مثل قولــه :

إذا عدَتْ مَكَارِمَـــها تمـيمُ ٠٠ فَخَرْتَ بمرْجَلٍ وبعَقْر نابِ

---

(١) كان العرب حينذاك يأنفون من احتراف المهن والصنائع ، لأنها كانت من أعمال العجم الذين يكرهونهم، فضلاً عن تصورهم للمهنة على أنها ارتباط الشخص بخدمة الآخرين لقاء أجر، وهو الأمر كانوا يترفعون عنه، وفى هذا السياق هجا الأخطل الأنصار بقولــه :

ذهبتْ قريشُ بالمكارم والعُلا ٠٠ واللؤم تحت عمائم الأنصـارِ

فذروا المعالى لسْتمُ من أهلها ٠٠ وخذوا مساحيكم بنى النجـارِ

وهجا جرير بنى حنيفة بقولــه :

أصحابُ نخلٍ وحيطانٍ ومَزْرعةٍ ٠٠ سُيوفُهم فيها مَسَاحيها.

وسيفُ أبى الفرزدق ـ قد علمتم ٠٠ قدومُ غيرُ ثابتةِ النصـابِ

ويتهكـم منه تهكماً لاذعاً ، حين يوصيه ـ على سبيل الاستهزاء ـ أن يكون متقناً لصنعته التى ورثها عن أبائـه:(١)

فَرَقِّعْ لجـدّك أَكْيَارَهُ ٠٠ وأَصْلح مَتَعَكَ لا تُفْسِـدِ

وأَدْنِ العَـلاَةَ وأَدْنِ القـدومَ ٠٠ ووسِّـه لكيرِكَ فى المقْعَـدِ(٢)

ويجعل من الفرزدق صورة شاذة عن الناس ، فيما يُعهد عليهم من ميراث أهليهم، ذلك لأن الفرزدق حين يرث من أهلـه ، فهو كما يقول جرير: (٣)

وأَوْرَثَكَ القينُ العَلاَةَ ومِرْجَلاً ٠٠ وإصلاحَ أَخْراتِ(٤) الفُئُوسِ الكرازمِ

وليس من حقك أيها (الفرزدق) أن تفخر بآباء يمتهنون هذه المهن الحقيرة ، حتى ألهتهم عن المكارم: (٥)

ألْهى أَبَاكَ عن المكارم والعُـلاَ ٠٠ لَيُّ الكتائِفِ وارْتفاعُ المِرْجَلِ(٦) و لايزال جرير يتخذ من هذه المهنة عورة ومثلبة ، يبدئ ويعيد فى صورها الساخرة ، ويقلب وجوهها ، ويلبسها ثوباً من الطرافة والإضحاك ، مثلما تراه فى هذه المرّة

---

(١) ديوانـــه ، ص ١٠٣.

(٢) العــلاة : سندان الحداد.

(٣) ديوانـــه ، ص ٤٥٨.

(٤) أخرات : جمع خرت وهو الثقب فى أعلى الفأس ، الكرازم : الفئوس ضخمة الرأس.

(٥) ديوانـــه ، ص ٣٦٠.

(٦) الكتائف : جمع كتيفـة ، وهى الصفيحة من الحديد ، والمراد بليّها ، أى ثنيها وجَذْلها.

• وقد جعل هذه الأدوات الخاصة بالحدادة ، هى كل ما يملكه جدّ الفرزدق، بل هى أشياؤه الثمينة التى يعتز بها ، حتى إنه ليدفنها معه فى قبره ذخيرة ثمينة: (١)

وُجِـدَ الكتيفُ ذخيرة فى قبرِهِ •• والكلبتانِ جُمِعْنَ والمنْشَارُ(٢)

ثـم إذا بكاه أحد بعد موته ، فلا تجد له سوى هذا (المرجل) يبكى صداه، حيث يشخصه جرير فيجعل منه الإنسان الوحيد الذى يخلص له ويبكيه،وكذلك هذه ، يقــذر المهشــمة: (٣)

يبكى صَدَاهُ ـ إذا تَهزَم ـ مِرْجلُ •• أو إنْ تَثَلَّم بُرْمَةٌ أَعْشَـارُ(٤)

وتأتـى ظاهرة التكرار لهذه القضية ، من خلال عملية التنويع والتوليد فى دلالتها، حتى ليصير ادعاء الشاعر لها كأنه حقيقة حفرتْ فى ذهن القارئ ، وكأن الفرزدق حقاً هو قين ابن قيون ، ومن ثم يتعامل معه على أنه محترف هذه المهنة لاريب ، ومن هذه الادعاءات الساخرة ، دعاء (حَذْراء) خطيبة الفرزدق، مستغيثة بربها (المصوَّر) الذى يصوِّر الخلق ، أن لا يجعله بعْلاها ، لما تحققتْ فيه كل ما ينفرها منه ، على هذا النحو الذى قال فيه جرير: (٥)

حذراء أنكرتْ القيونَ وريحَهمُ •• والحرُّ يمنعُ ضيمـهُ الإنكـارُ

---

(١) ديوانــه ، ص ١٥٦.

(٢) الكتيف والكلتان ، والمنشار ، كلها من أدوات الحدادة.

(٣) ديوانــه ، ص ١٥٦.

(٤) تهزم : تصدّع تصدُّع الموت ـ تثلّم : تشقّق ـ برمة أعشار : قِذْرُ مهشمَمة.

(٥) ديوانــه ، ١٥٦.

لما رأتْ صدَاَ الحديد بجلـدهِ ٠٠ فاللونُ أوْرَقُ والبنَانُ قصَـارُ[١]

دَعَتْ المصور دَعوةً مسموعة ٠٠ ومع الدُّعاءِ تضرّعُ وجُـؤارَ

عاذتْ بربّك أنْ يكون قرينُـها ٠٠ قيناً أحَمَّ لَفَسْوِهِ إعصـــارُ[٢]

ولجرير قدرة بارعة على تتبع عورات الخصم فى حياته الخاصة والعامة ، فيتسقط أخباره،ويتلقط حوادثه،ثم يعلنها فى شعره تشهيراً به،وتهكماً عليه،وكان فجور الفرزدق،وما اشتهر به من مغامرات مع النساء[٣]واحداً من تلك الميادين الذى يجد فيها جرير صيده الثمين ، ليشهر به،وينال منه،فحين يعبث الفرزدق عبث الشباب،ويتدلى فى أحد البيوت من ثمانين قامة،لهجاً ببعض النساء[٤]يشهرّ به جرير بقولـــه:[٥].

تدليتَ تزنى من ثمانينَ قامَـةً ٠٠ وقصَّرْتَ عن باعِ العْلا والمكارمِ

يوصَّل حَبليه إذا جَنَّ ليْلُـــهُ ٠٠ ليرْقى إلى جَارَتِهِ بالّسلالِـــمِ

---

(١) أورق : لونه لون الرمـاد .

(٢) أحـــمّ : أســـود.

(٣)الشعر والشعراء ، ٢/ ٢٧.

(٤) اعترف الفرزدق بذلك فى قوله : هما دلتانى من ثمانين قامة ٠٠ كما انقضّ بازٍ أقتم الريش كاسره [الشعر والشعراء ، ١/ ٣٣٠].

(٥) ديوانـــه ، ص٤٦٠.

وإذا كان جرير قد استخدم السخرية وسيلة فنية يتلقف بها سوءات الفرزدق فينميها، ويضيف إليها بالمبالغة حواشى وذيولا، فإنه لم يتورع عن استخدام نفس الوسيلة فى هجاء الأخطل مع فارق بسيط، وهو أن السخرية مع هذا الأخير كانت تتوجه فى كثير من الحالات إلى عقيدته، وظروف تكوينه الروحى، وما يقترن بها من النواقيس والصلبان، وأكل الخنزير، وما إلى ذلك، يعرضها جرير عرضاً تهكمياً فى كل الأحيان ، لاذعاً مؤلماً فى بعضها.

ويأتى الربط بين بنى تغلب ـ قبيلة الأخطل ـ وخنازيرهم ربطاً ينمّ عن قصدٍ تام إلى صناعة الفكاهة والتهكم ، وإن كان الأمر قد خرج فيه جرير إلى حدَّ الفجاعة حين انسحب الأمر على النساء ، لكننا نوردُ بعضاً من هذه الطرف التى تسمح بذكرها ، لا سيما تلك القفشات التى رصد فيها جرير كلف التغلبيين ـ وأكثرهم من النصارى ـ بأكل الخنزير ، الذى رصد فيه مناخره الضخمه ، فنعته بذى المناخر ، فى الوقت الذى تحتفظ فيه خلفيتنا الثقافية ، بأن الخنزير أصله يهودى مُسِخ ، لذا يخاطب جرير الأخطل متعجباً من حبه الخنزير: (١)

أتزعمُ ذا المناخِر كان سِبْطـاً ٠٠ يهودياً وتَزْعَمُه أَبَاكـا٠٠ ؟

ولعل من تمام غرامهم بأكل هذه الحيوان ، إذا رأته إحدى نسائهم: (٢)

تشمُّ التغلبيةُ وهى سَكْرَى ٠٠ قَفَا الخنزيرِ تحسِبُهُ غَزَالا

وليس كالنساء شئ يمكن أن يكون موضوعاً للقدح فى الأعراض ، وهو الأمر الذى ركز عليه جرير بشكل بارز مع خصومه لا يستثنى منهم أحدا، وسواءً

---

(١) ديوانـــه ص٣٢٧.

(٢) ديوانـــه ص٣٣٠.

أكان فيهن مايقول أم كان القول دعاءً ، فصنعة السخرية لها من الوقع على النفس مايجعل الأمر كأنه حقيقة ، لكنه فى الغالب إذا لم يكن ثمّـة حادثة بعينها يمكن للشاعر أن يدور فى فلكها ، أو يضخّم من حجمها ، لجأ إلى تلك القفشات الهازئة، والتصوير الضاحك ، مثلما فعل هذه المرة مع نساء بنى نمير، وقد صورهن دميمات مضحكات: (١)

وخضراءِ المغابن من نَمَيْرٍ ٠٠ يِشينُ سوادُ مَحْجرها النِّقابـا(٢)

إذا قامتْ لغير صَلاةِ وِتْـرٍ ٠٠ بُعَيْدَ النّوْم أَنْبحَتْ الكلابـــا

ملمح الدمامة بشكل خاص، من أقوى الملامح التى رصدها الشاعر فى حق النساء، ولعب على وترها، يعيّرهن ، وينتقص من قدرهن ، فنساء تغلب ماهن إلا قرود يتسترنْ وراء الخدور: (٣)

لعن الإلهُ نُسَبَّيةً من تَغْلبٍ ٠٠ يَرْفَهنَ من قِطَعِ العَبَاءِ خُدُورَا(٤)

مِنْ كلَّ حَنْكَلَةٍ ترى جِلْبَابها ٠٠ قِرْداً وتَغْلبَ للِعَبَـاءَةِ نـــيرا(٥)

---

(١) ديوانـه ص ٦٢.

(٢) المغابن:جمع مغبن، وهو كل مكوى من الجد ، محجرها: ماحول عينيها، وهو الـذى يظهـر من نقابها.

(٣) ديوانـــه ، ص ٢٢٥.

(٤) نُسـيّة : تصغير نسـوة .

(٥) حنكلـة : المرأة الدميمـة السوداء والجافية.

ولم يقتصر الأمر على دمامة المنظر وخشونة العيش ، بل عيرّهن كذلك بعدم اللين والتحضر، وافتقادهن لمظاهر الأنوثـة ، وذلك فى إحدى رقصات لهن حتى انكشفت عنهن العباءات ، فانكشف معها المخبوء: (١)

رَقَصَتْ بعاجنة الرّحوب نساؤُكم ٠٠ رَقْصَ الرَّئَال ما لهُـنّ ذيولُ(٢)

فَسخَ العَبَاءُ وريحُ نِسْوَةِ تَغْلِـبٍ ٠٠ عَدَسُ يُقَرْقرُ فى البطُونِ وفولُ(٣)

وقوله بمثلها فى نساء بنى مجاشع قوم الفرزدق ، وكن يكثرن من أكل الخنزير(٤)

مَبَاشيمُ عن غبَّ الخزير كانّما ٠٠ تُصوَّتُ فى أَعْفَاجهنَّ الضّفَادِعُ(٥)

❦ التوظيف الصوتـي:

وتلك إحدى الصور الطريفة للأداء الساخر عند جرير،تعتمد فى الأساس على نحت الألفاظ التى تشى بمعانى الهزء والاستخفاف،معتمداً على إيقاعها الموسيقى الساخر،فى ضخامة مبناها،ورنين حروفها، ودلالاتها المبهمة

---

(١) ديوانـه ص ٣٨٢.

(٢) عاجنة الرحوب: اسم مكان لبنى تغلب ـ الرئال : واحده رأل ولا النعام ، وأراد بالـذيول ما يكون من الريش على أرجل النعام.

(٣) فسـخ : كُشف.

(٤) ديوانـه ص ٢٩٢.

(٥) مباشيم : الواحد مبشام: المتخم ـ أعفاجهن : الواحد عفج ، وهى الأمعاء.

الغريبة، وهى التى يتولد منها الحسّ الفكاهى،كتلك التى تتركب من حروف مفخمة مثل (خجخجج) و(الجيثلوط).

و(قبقب) و(خضافِ) و(ضوطر) و(جوخى) و(الجلويق) و(وقبان) و(شِغْرة) و(زبداستها) و(خدوكس)[1]

وتأتى جلّ هذه الألفاظ فى سيقا استخدام الشاعر للنعوت الهازئة التى يلصقها بالأشخاص ، منطلقاً من وقعها الصوتى الساخر ، لتشكل أداة تهكم تنضح بوقعها الساخر الذى يثير الضحك ويبعث على الاستخفاف.

وثمّـة دلالة تمثل لازمـة عند جرير ، جرى استخدامها كثيراً فى هذا السياق، وهى دلالة (الفساء والضراط) ، وهى التى اختزلها فى لفظة (خفافِ) ونعت بها قوم الفرزدق ، فصاروا عنده (بنى خضاف)[2]

وإذا لقيتَ بنى خَضَافِ فقل لهم ٠٠ يوم الزُّبَيْر كَسَا الوجوه غُبَارا[3]

وينتقى جرير من هذه الألفاظ خاصة ، ما يكثر النعوت بها للنساء الإماء ، مثل (جوخى) وهو اسم مخصص للنساء و(خجخج) ومن معانيه الاستناخة

---

(١)الجيثلوط : شتم اخترعه للنساء ، ضوطر: الضخم اللئيم العظيم الإسـت ، جـوخى: اسـم للإماء ، الجلويق: لص من بنى مهرة ، وقبان: الأحمق ، فـدوكس: لقـب بنـى تغلـب ، شـعرة، زبداستها: ألفاظ اخترعت للاستخفاف من صاحبها .

(٢) ديوانـه ص ١٧٤.

(٣) بنى خضاف : أراد بنى مجاشع ، والخضاف : من الخضف وهو الضراط .

والحمق، و(القذام) وهى الجارية التى تلطخ البعر (الروث) ، فيلصقها بـ (بنى مجاشع) قوم الفرزدق ، استخفافاً بهم: (١)

فإنَّ مُجَاشِعاً فتَعَرَّفُوهمْ ٠٠ بنو جوخى وَخَجْخَجَ وَ القَذَامِ

ولما كان مجاشع جد الفرزدق يقبقب كالبعير كلما تكلم(٢) التقط جرير هذه الصفة وجعلها من نصيب جدوده ، فقال: (٣)

بَـلاءُ (بنى قباقب) كان خزيـاً ٠٠ وعاراً كُلّمـا ذُكـر التّبَالى

ولاينسى جريرا أن يكون للفرزدق ـ مثل قومه ـ لقبه الخاص به: (ابن شِعْرة) ويجعل منه لازمة مكرورة لا يناديه إلا به: (٤)

ولو كُنتَ مِنّا (يا ابن شِعْرة) مانَبَا ٠٠ بكفّيْكَ مَصْقُولُ الحديدةِ مُرْهَفُ

وقد لا يستشعر القارئ فى كثير من هذه الألفاظ، ماتحويه من مسحة الهزء والسخرية مثلما كان الحال فى عصرها وبيئتها، بيد أنه مع الاستعانة ببعض المعاجم اللغوية والكشف عن المقاربات الدلالية لهذه الألفاظ ، يمكن أن نتبين حقيقة هذا الإيحاء، وبخاصة حين نجد فى بطون هذه المعاجم أصلاً مكيناً لهذا النمط من استخدام الألفاظ ذات الوقع الموسيقى الغريب ، الذى ينبعث من تداخل حروفها، وإطالة مقاطعها ، وغرابة دلالتها، بل وإبهامها فى بعض الأحيان، مما يبرهن على نحتها لهذا الغرض الساخر، ولا أظن أن لها دلالة محددة إلا عبر إيحائها

---

(١) ديوانـه ص٤٠٦.

(٢) انظر: جرير ، حياته وشعره ، د٠ نعمان طه ، ص ٣٣٢.

(٣) ديوانـه ص ٣٤٣.

(٤) نفسـه ٢٩٧.

الصوتى ، فيجرى العرف اللغوى على نحو ما اشتهر من دلالتها المستعملة ، من مثل كلمة(العفتجش) بمعنى الجافى[١] و (العَيْسَجور) وهى الناقبة السريعة الكريمة النسب[٢] و(العسْلَطة) وهى الكلام بلا نظام[٣] ، و(العيْطَبُول) وهى المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الجسم[٤]، و(العفنقسْ) وهو المتطاول على الناس[٥].

وابتكار جرير لمثل هذه الألفاظ ، وتوظيف دلالتها الصوتية بقصد توليد عنصر السخرية والتهكم، إنما يذكرنا بنفس المسلك الإبداعي فى فلسفة شاعر المعرّة أبى العلاء المعرى ، حيث يتكئ هو الآخر على رنين الحسّ الصوتى ، وغرابة الألفاظ، ويجعل منها مادة للسخرية ، فقد أعطى الجنىّ الذى زعم أنه التقى به فى الجنة اسماً يوحى بالسخرية ، وذلك من خلال تركيبته الصوتية ، وغرابته وإبهام معناه وهو (الخيتعور أحد بنى الشيصبان) ، ويبالغ فى السخرية منه حين يكنيه بكنية تحتوى على أصوات غريبة الاستعمال: (أبو هَدْرش) ، وتتجلى براعة أبى العلاء ، ودقة حسّـه ، وسلامة ذوقه ، حين يستغل رنين الألفاظ ، وإيقاعها الموسيقى من خلال تركيبها فى مقاطع طويلة ، ويوظف ذلك فى بناء كلمات وألفاظ تنطق بجوّ الغرابة الذى يناسب عالم الجن الذى يتكلم عنه ، ويسجل

---

(١) معجم متن اللغة ـ أحمد رضا، مادة: عفج ، عسج ، عسل ، عطب ، عفق.
(٢) معجم متن اللغة ـ أحمد رضا، مادة: عفج ، عسج ، عسل ، عطب ، عفق.
(٣) معجم متن اللغة ـ أحمد رضا، مادة: عفج ، عسج ، عسل ، عطب ، عفق.
(٤) معجم متن اللغة ـ أحمد رضا، مادة: عفج ، عسج ، عسل ، عطب ، عفق.
(٥) معجم متن اللغة ـ أحمد رضا، مادة: عفج ، عسج ، عسل ، عطب ، عفق.

مغامراته مع بنى الإنسان، حتى ليخيل للقارئ أن تلك الألفاظ إنما قُدَتْ من قاموس الجن[١]، مثل :

(يقبور ، الطنبوب ، عمروس ، فرفور ، الدردبيس ، يعاليل ، غبيس ، نكيس)، وهكذا يكون جرير فى العصر الأموى ، والمعرى فى العصر العباسى ، قد أسَسا لأحد الألوان الفنية فى تحقيق عنصر السخرية ، عبر توظيف أصوات الألفاظ توظيفاً دلالياً.

الصورة الضاحكة :

وفى هذا الضرب من أساليب السخرية عند جرير، تتبدّى معالم الإبداع الفنى وذكاء القريحة، فى استهداف العنصر الساخر، وتحقيق مادته الفكاهية من خلال صورة تمثيلية مركبة، يشكل بناءها الفنى من خطوط وألوان وظلال ، تتجسّد فيها صورة مكتملة الخلق ، باعثة على الضحك ، ناطقة بسخريتها الطريفة، وهى صورة تشبه إلى حد كبير ـ فى وقعها ومغزاها ـ هذا المصطلح الفنى الحديث وهو ما نطلق عليه (الكاريكاتير) ، وهو عمل فنى " يقوم على تكبير جوانب الضعف أو القبح فى شئ ما ، فيبالغ فيها بقصد استغلال الطبيعة فى بيان عنصر التشويه، فتكون باعثاً على الضحك" [٢]

وتتبدّى الحنكة الفنية عند جرير فى استخدامه هذا الضرب من ضروب السخرية فى أنه مزج بين عنصرين مهين ، وهما التركيز على تشكيل الصورة

---

(١) انظر: رسالة الغفران ، لأبى العلاء المعرى ، تح: د. عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ـ ط٦ ، ١٩٧٧، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٢) انظر: السخرية فى أدب المازنى ، د. حامد الهوال، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ ص١٨.

الضاحكة للشخص المهجوّ من ناحية ، والإلماح إلى مثالبه الدقيقة ، وإبرازها فى صورة مكبّرة لتضيف عنصر المعايرة والإذلال من ناحية أخرى.

وبطبيعـة الحال، كان الفرزدق هو صاحب الحظ الأوفر الذى وجـه إليه هذا اللون من السخرية، حين ركز جريرٍ على أحد عيوبه الخلْقية ، وهى الدمامة والقصر وغلظة الوجه(١)، وتلك واحدة من أقوى الملامح الداعمة لنجاح الصورة الكاريكاتيرية، أضف على ذلك براعة جرير فى التعبير عن هذا الملمح فى أسلوب متناقض ضمن سياق فكاهى، استغل فيه فجور الفرزدق ، حتى جعل منه فاسقاً لا يأمنه جار مسلم، فكان منه هذا التصوير الضاحك فى قولـه: (٢)

لقد ولدتَتْ أمُّ الفرزدق فاجـراً ٠٠ وجَاءَتْ بوزواز قصير القوائم(٣) ٠٠

وما كان جارُ للفرزدقِ مُسْلـمُ ٠٠ ليأمنَ مَرْداً ليلُهُ غَيْرُ نائِـــم(٤)

وتأتـى الصورة المكبّرة التى تقوم على تضخيم عيوب جسدية فى الخصم لتجعل منه صورة ضاحكة أقرب إلى الفكاهة منها على السخرية اللاذعة، ودائماً ينطلق فيها جرير من صورة القرد التى ينوع فيها ويقلبها على عدة وجوه ، منها هذه الصورة التى جعل فيها الفرزدق قرداً أصابته صاعقة فاستدار إنساناً، كأنه كان يتنبأ بنظرية داروين ، أو لعله سبقه فى هذا الزعم: (٥)

---

(١) انظـر:معجـم الشـعراء المخضرمـين والأمـويين د٠ عزيـزة بـابتى، دار صـادر ـبـيروت ١٩٨٤ص٣٥٩.

(٢) ديوانـــه ص ٤٥٩.

(٣) وزواز: الكثير الحركة ، القصير القامة.

(٤) ليله غير نائم : لأنه يوقم طوال الليل بتلصص على النساء.

(٥) ديوانـــه ص ٢١٦.

وهل كان الفرزدقُ غَيْرَ مَرْدٍ ٠٠ أَصَابتْهُ الصَواعقُ فاسْتَدَارَا

أما فى هذا المرة ، فالصورة الكاريكاتيرية مرسومة بعناية فائقة، حين ركز جرير على إبراز ملامح جسدية محددة ، كبرّ بعض أجزائها، وضخم فى البعض الآخر ، فخرجت صورتها الذهنية تنطق بفكاهية عالية:(١)

إنّ الفرزدقَ قَدْ تبيَّن لؤْمُـهُ ٠٠ حيثُ التَقَتْ حُشَشَاؤُهُ والأخْدَعُ(٢)

وكـذلك قولـه :(٣)

أَرَى الشَيْبَ فى وَجْه الفرزدقِ قد عَلاَ ٠٠ لَهَازمَ مردٍ ونحتهُ الصّواعقُ(٤)

وتشكيل مثل هذه الصورة بمواصفاتها الكاريكاتيرية ، القائمة على رصد العيوب الجسدية والمبالغة فى تضخيمها ، بقصد التهكم والإضحاك إنما يذكرنا بصنيع ابن الرومى فى هذا السياق ـ وإن كنت أزعم أن السبق حينئذٍ يكون لجرير ـ وبخاصة صورة الأحدب التى مزج فيها بين الدقة والمبالغة ، فجاء فيها قولـه:(٥)

قَصُرَتْ أَخَادعَهُ وطال قَذَالُهُ ٠٠ فكأنَهُ متربصُ أن يُصْفَعَا

وكأنما صُنِعَتْ قفاهُ مَـرّةً ٠٠ وأحسّ ثانيـةً لها فتجمّعا

وفى إحدى صوره التمثيلية المركبة ، يرصد جرير ملامح الدمامة عند نساء بنى مجاشع ـ قوم الفرزدق ـ كما رصدها عند الفرزدق من قبل ، فيعمد إلى

---

(١) نفســه ص ٢٧٢.

(٢) الحششاء : العظم الناتئ وراء الأذن ، الأخدع : يخرُقُ فى صفحة العنق ، وهما أخدعان .

(٣) ديوانــه ص ٢٩٢.

(٤) اللهـازم : الواحد لهزمة ، وهى عظم ناتئ تحت الحنك (الشدق).

(٥) ديوان ابن الرومى، تح: حسين نصار، ١٩٧٨ ، بدون جهة نشر ، ص ١٤٦٨.

رسم الصورة من خلال لازمته التصويرية فى مثل هذه الحالات ، وهى صورة مناخر الخنزير الضخمة التى تبعث على الدمامة والضحك ، حين يسحبها على منظر النسوة ، فيقول: (١)

إذا أَسْفَرَتْ يوماً نساءُ مُجَاشِعٍ ٠٠ بَدَتْ سَوْءَةٌ مما تَجِـنُّ البراقِـعُ

مَنَخِرُ شَانَتْها القيونُ كأنّهــا ٠٠ أنوفُ خنازيرِ السّوادِ القوابــعِ (٢)

* القفشـــات الضاحكة :

فى هذه الصورة من هذا المسلك الفنى ، يكون التركيز على كثافة اللون الفكاهي فى صورة قصيرة شديدة الوقع والوضوح ، فتأتى هذه الصياغة فى قالب من القفشات الضاحكة، وصور من التهكمات الباسمة ، فتبعث على الفكاهة السارة أكثر منها إيلاماً للنفس ، وغالباً ما يورد هذه الدلالة عبر إسقاط مباشر لصورة ذهنية مفردة، أو دلالـة لفظية ذات كثافـة عالية من الإيحـاء.

فهذا الفرزدق وقد توعد (مربعاً) ـ راوية جرير ـ بالقتل ، فلجأ مربع إلى جرير، فما كان من جرير إلا أن وجّه للفرزدق تهكماً ، لا نجد أروع منه نكته ، ولا أفكه منه ابتسامة حين قال: (٣)

زَعَـم الفرزدقُ أَنْ سيقتلُ مَرْبَعاً ٠٠ أَبْشِـرْ بطول سلامةٍ يا مرَبْعُ (٤)

---

(١) ديوانــه ص ٢٩٢.

(٢) القوابع : من قبع الخنزير ، أى صوّت ، وفى البيت إقـواء.

(٣) ديوانــه ص ٢٧٢.

(٤) مربعاً : لقب وعوعـة ، أحد بنى أبى بكر بن كلاب ، كان راوية لجرير .

وحين اغتاظ جرير بسبب انضمام الفرزدق إلى الأخطل النصرانى ليقفا معاً ضده أضحك أهل المِرْبَد على الفرزدق بقولـه: (١)

وإنّك لو تَعْطِى الفرزدقَ دِرْهَماً ٠٠ عَلَى دِينِ نَصّرانيّةٍ لَتَنَصَرا

وينوّع له بقفشـه أخـرى فى نفس السياق: (٢)

تُحبُكَ يومَ عِيدِهِم النّصَارَى ٠٠ ويَوْمَ السّبْتِ شِيعَتَكَ اليَهُودُ

وما أكثر أن تكون هذه القفشات الضاحكة موضوع نزال قائـم بين جرير وخصومه ، حين يتبارون فى استثارة الجماهير وإضحاكهم فى سوق المربد وغيره من أماكن تجمعات الشعراء ، وبخاصة حين يتبادلون فيما بينهم النيل من الآباء والجدود.

ففى مجال البخل يُسدّد الأخطل هذه القفشة الضاحكة فى وجه جرير، معيراً قومه بالبخـل: (٣)

والخبزُ كالعَنبَر الهندىّ عندهـمُ ٠٠ والقمحُ خَمْسونَ أَرْدَبّاً بدينارِ

فيبادلـه جرير بقفشـة مثلها فى نفس السياق: (٤)

والتَغْلبىُّ إذا تَنَعْنَحَ للِقِرَى ٠٠ حَكَّ اسْتَهُ وَتَمَثّل الأَمْثَالا

---

(١) ديوانـــه ص ١٩٠.

(٢) نفسـه ص ١٢٧.

(٣) النقائض ، ولم أعثر على البيت فى الديوان .

(٤) ديوانـــه ص ٢٦٢.

ويتطاول الفرزدق على قوم جرير بواحـدة من العيار الثقيل: (١)

يَسْتيقظون إلى نَهاقِ حِمَارِهِمْ ٠٠ وتنامُ أَعْيُنُهم عنْ الأَوْتَـارِ

فيبادله جرير ، بواحدة من العيار الأثقـل: (٢)

قومُ إذا حَضَرَ الملوكَ وُفُودُهُم ٠٠ نُتِفَتْ شَوَاربُهُم عَلَى الأَبْوَابِ

وإذا طال النزال نساءهم ، فجرير سيّد موقفه ، وحامى دماءه ، يسدّد سهامه نحو الخصوم يَمْـنةُ ويسْرة ، فهذه واحدة يوجهها إلى نساء بنى نمير: (٣)

وقد جَلَتْ نِساءُ بنى نُمـيرٍ ٠٠ وما عَرَفَتْ أناملها الخِضَابَـا(٤)

إذا حَلَتْ نِساءُ بنى نُمــير ٠٠ على تِبْرَاك خبّثَتْ التّرابَــا

وتلك أخــرى لنساء بنى تغلـب: (٥)

تشمُّ التغلبيةُ ـ وهى سَكْـرى ٠٠ قفا الخنزير تَحْسِبُهُ غَـزَالا

وهكذا ٠٠ تتأكد لدينا قناعة نقدية وأدبية بالقدرة الفنية التى تستحوذ عليها شخصية جرير، وامتلاكه ذمام السبق والمبادرة ، فى الخلق والإبداع والتوليد، للعديد من الظواهر والأساليب الفنية الجديدة ،وتفتّـق ذهنه عن ملامح

---

(١) ديوان الفرزدق ، ص ١٥٢.

(٢) ديوانــــه ص ٥٢.

(٣) نفســـه ص ٦٢.

(٤) جلّت: لقطت الجلّة ، وهى البعرة ، يريد أناملهـا متسـخة مـن البعـر، لا تعـرف النظافـة والخضاب.

(٥) ديوانــــه ص ٣٣٠.

وصور بديعة فى الأفكار والمعاني ، وطرائق العرض والإنشاء، ما يجعله محط نظر الشعراء الكبار.

الذين لم يسعفهم الحظ أن يكونوا من المشاركين فى حلبة الأدب والفن التى أقامها جرير مع خصومه من الشعراء الفحول، فيكون ذلك سبباً فى شهرتهم وعلو كعبهم، فقد جاء فى كتاب العمدة: " أن جريراً هجاه بشار بن برد بأشعار كثيرة فلم يجبه، وقال بشار: ولم أهجه لأغلبه ، ولكن ليجيبنى فأكون من طبقته ، ولو هجانى لكنتُ أشعر الناس "[1] .

وحسبنا هذه الشهادة الفنية التى خرجت من متذوق لشعر جرير عن كتب ، وأحد خصومه فى حلبة الصراع الأدبى وفحولة الشعر ، إنه الفرزدق ـ وقد سأله سائل عن جرير ، فقال : " أعن الخطفىّ تسالنى .. ؟ قاتله الله فما أخشن ناحيته ، وأشرد قافيته! والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها ، والشابة على أحبابها، ولكنهم هروه، فوجدوه عند الهراش نابحاً ، وعند الجراء قارحاً، وقد قال بيتاً لأن أكون قلته أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس :

إذا غَضِبَتْ عليك بَنُو تَمِيمٍ .. حَسِبْتَ النّاسَ كلَّهُمُ غِضَابَا [2]

---

(١) العمدة ، لابن رشيق ، طبعة دار الجيل ، تح: محمد محى الدين عبد الحميد ، ١/ ١١٠.
(٢) الأغانـــي ، ٧/ ٣٩.

ثبت بأهم المراجع

* ابن الأثير

١ـ الكامل فى التاريخ ، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧م

* ابن الرومى

٢ـ ديوانه ، تحقيق حسين نصار ، بدون جهة نشر ، ١٩٧٨م

* ابن سلام الجمحى

٣ـ طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر،دار المدنى ـ جدة ١٩٧٤م

* ابن عبد ربه

٤ـ العقد الفريد ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب العربى ، بدون تاريخ

*ابن قتيبة

٥ـ الشعر والشعراء ، دار إحياء العلوم ت بيروت ـ ط٥ ، ١٩٩٤م

* ابن منظور

٦ـ لسان العرب ، دار صادر ـ بيروت ـ بدون تاريخ

* أبو عبيدة معمر بن المثنى

٧ـ نقائض جرير والفرزدق، باعتبار المستشرق بيفان ـ دار صادر ـ بدون تاريخ

* أبو العلاء المعري

٨ـ رسالة الغفران ، تحقيق عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف ـ ط٦، ١٩٧٧م

* أبو الفرج الأصفهاني

٩- الأغانى ، دار الكتب العلمية - بيروت - ط٢ ١٩٩٢م

* أحمد رضـا

١٠- معجم متن اللغة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٥٨ م

* الأخطـــل

١١- ديوانه ، شرح الأستاذ مهدي محمد ناصر - دار الكتب العلمية - ١٩٩٤م

* جاد المولى وآخرون

١٢- أيام العرب فى الجاهلية - عيسى البابى الحلبى ، ١٩٤٢ م

* جريـــر

١٣ - ديوانه، شرح الأستاذ مهدى محمد ناصر - دار صادر - بيروت ، ١٩٩١م

* حامد عبده الهوال (دكتور)

١٤ - السخرية في أدب المازنى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣ ٠

* الرازى

١٥- مختار الصحاح ، دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ

* شوقى ضيف (دكتور)

١٦- التطور والتجديد في الشعر الأموى - دار المعارف ، ط٦ ، بدون تاريخ

١٧- العرض الإسلامى - دار المعارف - ط ٦ ، ١٩٧٤ م

١٨- الشعر الغنائي في المدينة - دار الفكر العربي بمصر - بدون تاريخ

١٩ـ الشعر الغنائي في مكة ـ دار الفكر العربي بمصر ـ بدون تاريخ

* الطبـــرى

٢٠ـ تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ، ١٩٦٢م

* عزيزة بابتى (دكتورة)

ـ معجم الشعراء المخضرمين والمويين ـ دار صادر ـ ١٩٨٤م

* الفـــرزدق

٢١ـ ديوانه ـ دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧م

ـ ٥٥ ـ

* المبـــرد

٢٢ـ الكامل في اللغة والأدب ، المكتبة التجارية ، ١٩٢٩م

* مجمع اللغة العربية

٢٣ـ المعجم الوسيط ، دار المعارف ، ١٩٨٠م

* محمد فتوح أحمد (دكتور)

٢٤ـ الشعر الأموى ، دراسة فى التقاليد والصالة الأدبية ، مكتبة الشباب ، ١٩٧٧م

* المرزبانـــى

٢٥ـ الموشح ، طبعة الخانجى ، ١٩٢٨ م

* المسعودى

٢٦- مروج الذهب ، الطبعة البهية ، بدون تاريخ

* نعمان طه (دكتور)

٢٧- جرير حياته وشعره ، دار المعارف ، ١٩٦٨م

* ياقوت الحموى

٢٨- معجم البلدان ، دار الفكر ، ١٩٧٣م

دوريـــات

٢٩- مجلة الدكتور القاهرية ، العدد ٧١، السنة السادسة

٣٠- مجلة الدكتور القاهرية العدد ١١ ، السنة الأولى

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحـة
مقدمـــة	٢٢٧
المبحث الأول : جرير الشاعر ٠٠ مقاربات وإضاءات	٢٣٢
المبحث الثانى : نقائض ٠٠ وسخريات	٢٤٠
المبحث الثالث : سخرية جرير ٠٠ الأسباب والدوافع	٢٤٥
ـ أولاً : العامل النفسـي	٢٤٦
ـ ثانياً : العامل الاجتماعي	٢٥٢
ـ ثالثاً : الطابع الفنى	٢٥٤
ـ رابعاً: الطابع الشخصى	٢٥٦
المبحث الرابع: التشكيل بالأسلوب الساخر	٢٦٠
السخرية بالنقض	٢٦١
السخرية بالمعايرة	٢٦٦
التوظيف الصوتي	٢٧٣
الصورة الكاريكاتيرية	٢٧٨
القفشات الضاحكـة	٢٨٠
ثبت بأهم المراجـع	٢٨٤
فهرس الموضوعات	٢٨٨